جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم الجغرافية

أملية مقرر تاريخ ٢ (تاريخ العرب والإسلام)

الجزء الأول/ السنة الثالثة

إعداد: د. نهى فضل الله حميد

العام الدراسي ١٤٣٨ هـ/ ٢٠١٦م


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الفصل الأول

السمات العامة لتاريخ العرب قبل الإسلام
(العصر الجاهلي)

أولاً: الوضع الجغرافي

ثانياً: الواقع السياسي

ثالثاً: ملامح الحياة الاجتماعية والاقتصادية:

رابعاً: الحياة الدينية

خامساً: مظاهر الحياة الفكرية

Damascus University

أولاً: الوضع الجغرافي للجزيرة العربية

لدراسة تاريخ أمة من الأمم وفهمه لابد من وضعه في إطاره الجغرافي (الموقع والحدود، والواقع الجغرافي، والجيولوجي، والمناخي، ... الخ.)، لأنه يؤثر في حركة الإنسان، وفي علاقاته، وأسلوبه و قدرته على الإنتاج بشكل واضح، ويترك بصماته على حركة التاريخ.

تتمتع الجزيرة العربية التي تقع بين قارتي آسيا وأفريقيا بميزات وخصائص تجعلها جديرة بأن تكون قارة لوحدها، فهي تحتل الجزء الجنوبي الغربي من آسيا، وتتصل بأفريقيا عن طريق صحراء سيناء، وفي الماضي وقبل أن ينشق البحر الأحمر (القلزم)، كان القسم الغربي منها جزءاً من الأرض الإفريقية، وتتصل من جهة الشمال بالقسم الجنوبي من بلاد الشام، فيما تطل من الجنوب على بحر العرب والمحيط الهندي، ومن الشرق والشمال الشرقي تحاذي الخليج العربي وتشرف على جنوب بلاد الرافدين والعراق، مما أكسبها أهمية استراتيجية واقتصادية، وجعلها مجالاً للتنافس بين مختلف القوى العالمية منذ أقدم العصور.

تتنوع مظاهر السطح في الجزيرة العربية، فالأراضي المنخفضة تتمثل في سهول تهامة في الغرب مسايرة لسواحل البحر الأحمر، وسهول الخليج العربي في الشرق، ومع ذلك فإن المظهر السائد في معظم مساحة البلاد هو النجود والهضاب التي تنحدر نحو الخليج العربي ونحو الشمال. واستناداً إلى الواقع التضاريسي قسم العرب جزيرتهم إلى خمسة أقاليم رئيسية وهي:

أ. تهامة: وهي السهول الممتدة بمحاذاة البحر الأحمر من ينبع شمالاً إلى نجران في اليمن جنوباً، وأكثر أجزاء تهامة رملي شديد الحرارة قليل الإنبات، ويقع فيه الكثير من المرافئ، أهمها جدة وهي ثغر مكة، وينبع وهي ثغر(يثرب) المدينة، والجار، والحديدة، والمخا،... الخ.

ب. الحجاز: ويقع شمال اليمن وشرق تهامة، ويتألف من سلسلة جبال السراة (سراة عسير وسراة الحجاز) الممتدة من نجران اليمن إلى الشام، التي يتخللها العديد من الأودية، وأهم مدنها: مكة، يثرب (المدينة)، الطائف، خيبر، تيماء... .

ج. هضبة نجد: ويمتد شرق الحجاز في وسط الجزيرة؛ بين الحجاز واليمن والعروض وأطراف العراق وبادية الشام (السماوة)، تكثر فيها الصخور الرملية والكلسية والطفلية مع وجود الصخور النارية والبركانية، حيث تشكل الصخور الرملية مخزناً للمياه يزود واحات الهضبة بكميات وافرة منها، مما يجعلها منطقة غنية بالمراعي الخضراء.

د. **الإقليم الرابع هو اليمن:** ويقع في الزاوية الغربية الجنوبية من الجزيرة العربية وهي منطقة مرتفعة أقيمت على أرضها سدود وخزانات المياه، وتعد اليمن من أخصب أقسام الجزيرة وشهدت قيام أقدم الحضارات البشرية، وأشهر مدن اليمن: صنعاء وحضرموت وظفار... .

هـ. **العروض:** دعيت بهذا الاسم لاعتراضها بين اليمن جنوباً ونجد والعراق شمالاً، وتشتمل على اليمامة والأحساء وقطر والبحرين، ومعظم أراضيها صحارى، وسهول ساحلية(١).

وإذا استثنينا اليمن وعمان وبعض الوديان الواقعة في سلسلة الجبال الغربية وفي نجد والأحساء، فإن الجزيرة العربية في الغالب صحارى ودارات(٢)، وتعد الصحارى الرملية من أهم الظاهرات الطبوغرافية في الجزيرة العربية، وهي تلال رملية على شكل ألسنة تتفرع من الربع الخالي، وتمتد باتجاه الشمال حتى تتجمع الألسنة فيما يسمى **بالنفوذ الكبرى** التي تصل حتى حدود فلسطين الجنوبية، وتبلغ مساحتها نحو ٧٥٠٠٠ كم٢. وصحراء: **الربع الخالي** وتقع في الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية، وتمتد من هضبة نجد إلى حضرموت وعمان، وهي صحراء جدباء تبلغ مساحتها حوالي ٦٤٧٥٠٠٠ كم٢. وتتصل هاتين الصحراوين بقوس طويل ضيق اسمه **الدهناء** أو **النفوذ الصغرى**، ينمو في بعض أجزائها الأعشاب الرعوية والشجيرات القصيرة(٣).

المناخ: يختلف المناخ في الجزيرة العربية باختلاف أقسامها الطبيعية، وهو يتصف بارتفاع **درجة الحرارة** (يزيد المعدل السنوي عن ٢٠ درجة مئوية ، ويصل معدل النهاية العظمى في شهر تموز إلى ٤٣ درجة)، وانخفاض **مستوى الرطوبة**، ونتيجة لانتشار الصحاري، وعدم انتظام مواسم الأمطار، فهو مناخ قاري صحراوي يميل إلى الجفاف، وقد يلطف البحر الجو في المناطق الساحلية في الشرق والغرب والجنوب؛ لكن هذا التأثير لا يصل إلى المناطق الداخلية، حيث ترتفع الحرارة نهاراً، وتنخفض انخفاضاً ملحوظاً في الليل في بعض المناطق، ويعتدل المناخ في الجهات المرتفعة والمجاورة للوديان ومساقط الأمطار. وتهب على الجزيرة العربية أنواع مختلفة من **الرياح** عامة وموسمية ومحلية ؛ باردة وحارة، ممطرة وجافة، وقد نسب العرب أمهات الرياح إلى الجهات الأربع، وعلى الرياح — باستثناء ريح السموم التي تؤذي الإنسان والحيوان والنبات — تعتمد حياة سكان البوادي بشكل كبير(٤).

المياه: تعد الجزيرة العربية فقيرة بالمياه فهي تفتقر للأنهار الدائمة الجريان، غير أنه تتشكل فيها بعد سقوط الأمطار، التي تجلبها الرياح الموسمية؛ شبكة من الأودية أشهرها: وادي السرحان، الحمض، العقيق، الرمة، الدواسر، وادي حضرموت، العرض(اليمامة)... . إلى جانب هذه الوديان يوجد في الجزيرة العربية عدد من البحيرات في مناطق الخرج

والافلاج وغيرها؛ إضافة لذلك تشكل الآبار مصدراً مهماً للمياه، وهناك العيون التي توجد في الواحات. أكبر كمية من الأمطار تتلقاها اليمن لاصطدام الرياح الموسمية الجنوبية بجبالها، أما بقية المناطق وخاصة البوادي فالمطر فيها قليل ونادر(٥).

النبات: على الرغم من كون الجزيرة العربية من المناطق الفقيرة بالمياه؛ غير أنها تضم مناطق ذات تربة زراعية خصبة ومناخ معتدل، كاليمن وحضرموت في الجنوب، وجبال الطائف قرب مكة ومدينة يثرب في الشمال واليمامة في الجنوب الشرقي، حيث تنمو فيها أنواع من النباتات تختلف باختلاف التضاريس والتربة وكمية الأمطار، وهي تتركز في سفوح جبال المراة وحضرموت وظفار ووديان الجبل الأخضر في عمان، وتتقلص كلما اتجهنا باتجاه الصحارى. يتكون معظم الغطاء النباتي الطبيعي من نباتات صحراوية فقيرة، مثل النباتات الشوكية والأعشاب القصيرة (السدر، الشوحط، التين البري، اللبان، المر، الصمغ، الأقحوان، والخزامى، والآثل، والحلفاء، والحنظل، والشيح ...الخ)، التي تنمو عقب سقوط الأمطار. إضافة إلى ذلك تنمو في الواحات الخصبة في الجزيرة العربية بعض أنواع الفاكهة (الرمان، المشمش، اللوز، البطيخ، قصب السكر...الخ)(٦).

ثانياً: الواقع السياسي في الجزيرة العربية

كانت حياة العرب في العصر الجاهلي ـــ الحقبة التي تمتد إلى ما قبل فجر الإسلام بنحو قرن ونصف إلى قرنين (أواسط القرن الخامس بدايات القرن السابع الميلادي) ـــ منتشرة على رقعة واسعة من الأرض يسودها المناخ الصحراوي الجاف، وتقل الأمطار وخاصة في الداخل. ولذا لم تكن حياة العرب مستقرة إلا في اليمن والحجاز واليمامة حيث كانت تعيش قبائل عربية حياة أقرب إلى التحضّر كقريش في مكة، والأوس والخزرج في يثرب، وثقيف في الطائف، والغساسنة في بلاد الشام، وآل نصر في الحيرة، وبني حنيفة في اليمامة، أما باقي العرب فكانوا يعتمدون التنقل لانتجاع المرعى والكلأ، وقد اتسعت بهم الرحلة في موجات تتابعت خارجة من قلب الجزيرة العربية وجنوبيّها نحو العراق والشام والحبشة.

ومع نشاط هذه الحركة البشرية عرف العرب في الجاهلية ـــ إذا استثنينا الحجاز ـــ بعض التكوينات السياسية المتمثلة بالقبائل الكبيرة، أو بالتجمعات القبلية الموحدة تحت زعامة واحدة كونت في بعض الأحيان والأماكن؛ ممالك وإمارات صغيرة كممالك تدمر والأنباط والغساسنة أولاد جفنة في بلاد الشام، وإمارة اللخميين في الحيرة، وإمارة كندة في نجد، وممالك حمير والتبابعة وسبأ في اليمن. أما سائر الأعراب البداة فكانوا ينتشرون في الصحراء، وفي الشمال من الجزيرة غالباً وعرفوا حياة سياسية فطرية وفق النظام القبلي، كما حرص بعضها على الدخول في رعاية إحدى الدول الكبرى المعاصرة لها، وذلك لما فطر عليه أهل البادية من التخاصم والتنازع، فكانت كل قبيلة تسعى للانضمام إلى الدول العربية المتحضرة ، للاستنجاد بها ـــ كما كان عليه الحال بين المناذرة والفرس، والغساسنة والروم البيزنطيين ـــ ، وسعى بعضهم الآخر إلى التقرب من إحدى القبائل الكبرى للتفاخر في خدمتها(٧).

أما في الحجاز، فقد كان الوضع مختلفاً، حيث قامت حكومات في بعض المدن(مكة، الطائف، يثرب) يمكن أن يطلق عليها تجاوزاً جمهوريات المدن التجارية، وهي ذات طابع سياسي خاص.

مكة :

تعد مكة من أشهر مدن الحجاز؛ وذلك بفضل موقعها المتميز على طريق القوافل التجارية، ولمركزها الديني القديم ففيها أول بيت وضع لعبادة الله سبحانه تعالى(الكعبة)، وكان تمركز الأسواق التجارية فيها وحولها قد مكن قريش من السيطرة الاقتصادية على شمال شبه الجزيرة العربية، وترتب على هذا فرض نفوذها السياسي على شمال الجزيرة العربية وتحكمت بالتالي في النشاط الاقتصادي بشكل تام. إذ غير العامل الاقتصادي الواقع الاجتماعي والسياسي في مكة؛ بحيث نتجت مؤسسة سياسية نظمت العلاقة بين الفئة المالكة لوسائل

الإنتاج، والفئات الاجتماعية الأخرى الخاضعة لاستغلالها الاقتصادي وأضفت شرعيتها على هذه العلاقة. وقد مر المجتمع المكي وصولاً إلى زمن ظهور الإسلام بثلاث مراحل:

أ. المرحلة الأولى مكة الحنيفية المتصلة بزمن إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل، حيث بني البيت الحرام واكتسبت مكانتها المقدسة في شمال الجزيرة العربية .

ب. المرحلة الثانية عاشتها مكة في ظل قبيلة خزاعة وزعيمها عمرو بن لحي، الذي عمل على تشجيع الحج بتنظيم تأمين متطلبات الحجاج من الطعام والماء، وأضاف عبادة الأصنام في الكعبة إلى الديانة الحنيفية، وكان بحق مؤسس المجتمع المكي الأول، واستمرت خزاعة تتولى البيت الحرام نحو ثلاثة قرون كانت قريش خلالها متفرقة في بني كنانة ، ويعود نسبها إلى النضر بن كنانة ؛ وكان اسمه قريشاً وإليه نسب أحفاده القرشيين.

ج. المرحلة الثالثة هي التي علت فيها مكانة قريش في أيام قهر بن مالك بن النضر، واشتهر بعده كعب بن لؤي الذي احتل مكانة سامية عند العرب، لكن قريش عظم شأنها تحت زعامة قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك ، حيث شكلت مكة مركز الجزيرة العي وسط الصراعات القبلية المحيطة بها، وحيث صار المال لا العرف القبلي التقليدي أساس لكل العلاقات والروابط فيها.

بدأ قصي أولاً بإسكان وتنظيم قبيلة قريش وفق الحالة المادية لكل من أفرادها، فميز بين فئاتها: أغنياء قريش الذين أسكنهم حول الكعبة في **بطاح** مكة، ومن بينهم بنو هاشم وبنو أمية سادة قريش، وأسكن الفئة الثانية الأقل ثراءً في **ظواهر** مكة وعرفوا بقريش الظواهر ومنهم بنوهصيص بن كعب بن لؤي وتيم بن مرة ومحارب والحارث ابنا فهر؛ إلى جانبهم سكن مكة **الأحلاف** الذين كانوا ينتمون لقريش عن طريق التحالف، وأخيراً **الأحابيش** المؤلفين من جماعة من مختلف القبائل والذين تحالفوا وانضموا إلى مكة.

تزعم قصي قريش ووحدها، وصار الممتول عن **الحجابة** (الإشراف على الكعبة)، **والسقاية والرفادة** (إطعام الحجاج وإسقائهم في المواسم)، **واللواء** والقيادة في الحرب، وابتنى **دار الندوة** (دار الحكم والتشاور)، وجعل بابها إلى المسجد الحرام، وبذلك أصبحت مركزاً لإدارة شؤون قريش كلها، وسمح بالدخول إليها فقط للشريحة العليا من قريش، ولمن بلغ سن الأربعين من العمر، وقد تمتعت مؤسسة الندوة بسلطات تشريعية تنفيذية قضائية وإدارية لكافة الشؤون العامة والخاصة لسكان مكة. وفرض على القرشيين رسوم سنوية ليقوم بإنفاقها وإطعام فقراء الحجاج.

أوصى قصي لولده عبد الدار ــ على الرغم من ضعفه ــ مهام الإشراف على الندوة والحجابة والسقاية والرفادة واللواء، من أجل رفع مكانته في المجتمع المكي؛ وبعد وفاته لم

يعترض أخويه عبد مناف وعبد العزى على ذلك، إلا أنه بعد حين نازع أبناء عبد مناف أبناء عبد الدار وطالبوا بإعادة النظر في توزع هذه المهام والامتيازات الاقتصادية والسياسية التي خص بها قصي ابنه عبد الدار؛ ورغب آخرون الإبقاء على ما فعله قصي مما أدى إلى انقسام القرشيين إلى فريقين: المطيبين والأحلاف(٨).

ظهر حلف **المطيبين** نتيجة للصراعات الداخلية على مركز النفوذ في مكة، وعقد بين بني أسد بن عبد العزى، وبني زهرة بن كلاب وبني تيم بن مرة وبني الحارث بن فهر بن مالك وبين بني عبد مناف بهدف إعادة توزيع المرافق الاقتصادية بين جميع القبائل. أما **الأحلاف** فمثلوا التكتل المنافس، المؤلف من بني مخزوم وبني سهم وبني جمح وبني عدي بن كعب وبين بني عبد الدار والذي رفض تغيير أي شيء مما كان قد فعله قصي. كانت المنافسة شديدة واستنفر كل من الفريقين للصراع، إلا أن الطرفين جنحا للمهادنة، واتفقا على أن يعطوا لبني عبد مناف السقاية والرفادة، وتبقى الحجابة واللواء ورئاسة دار الندوة لبني عبد الدار. وبذلك حقق المطيبون إنجازاً مهماً وهو الاعتراف بشراكتهم في زعامة المدينة، على الرغم من التفاوت في الثروة والنفوذ بين الطرفين.

وللمحافظة على مكانتهم عمد المكيون إلى استخدام فرقة عسكرية من الأحابيش، وعقدوا الأحلاف والإيلافات والمصاهرات مع العديد من القبائل حتى تكون روابطهم أشد وأمتن، حيث أظهر القرشيون براعة وحنكة سياسية لا تجارى مكنتهم من الاستمرار في الزعامة لأمد طويل(٩).

وأدرك أبناء عبد مناف أن حياتهم ترتكز على التجارة، وهي تقتضي أمناً داخلياً ومسالمة للجوار ولهذا أقدموا على عقد المصاهرات، والاتفاقات مع القوى المختلفة (الخارجية والداخلية)، فعقد هاشم بن عبد مناف اتفاقاً مع الروم والغساسنة في بلاد الشام ، وعقد عبد شمس اتفاقاً مع الحبشة، ونوفل عقد اتفاقاً مع الفرس والمناذرة في العراق، وعقد المطلب اتفاقا مع اليمن. بموجب هذه الاتفاقات (الإيلافات) تمكنت قوافل قريش أن تتنقل بين الحجاز والشام والعراق واليمن والحبشة بكل أمان، فازدهرت تجارة مكة واختلط سكانها بشعوب مختلفة تأثروا وأثروا في حضارتها؛ رافق ذلك انتشار السماسرة والصيارفة الذين عمدوا إلى المضاربة والغش والتزوير والإقراض بفوائد فاحشة (الربا) فوصلت الفائدة إلى ٥٠ % مما أدى إلى معاناة الفقراء وازدياد الفوارق الطبقية(١٠) .

يثرب:

كان يسكن يثرب في قبيلتا الأوس والخزرج، وهما من قبائل عرب الجنوب اليمنية الذين استقروا في يثرب بعد خراب سد مأرب، والتي كان يسكن فيها ثلاث قبائل تدين باليهودية، وهي بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع. وقد أقام اليهود في الجزء الخصب من

أرضها(١١)، وكانت يثرب تعيش أزمة متعددة الأسباب، أهمها أنه على الرغم من الوفاق الذي ساد بين الأوس والخزرج في بداية عصرهم في يثرب، فإنه سرعان ما دب الخلاف والحروب الدائمة بينهم؛ حيث ساهم اليهود في الإيقاع بينهم ليتسنى لهم السيادة على يثرب، في الوقت الذي كان يزداد فيه عدد السكان ولا يرافقه تحسن في الوضع الاقتصادي، لأن اليهود كانوا يسيطرون على الموارد، وبالتالي فقد عانت يثرب أزمة اقتصادية واجتماعية ودينية إلى جانب أزمتها السياسية(١٢).

الطائف:

وهي مركز زراعي مهم، اشتهرت بخصوبة أرضها وطيب هوائها ووفرة المياه وتنوع الثمار والفاكهة فيها، إلى جانب تمتعها بموقع ممتاز على طريق القوافل، أهّلها لتكون مركزاً تجارياً مهماً.

تاريخ الطائف يلفه الغموض قبل أن تستقر وتتحصن فيها قبيلة ثقيف، التي ارتبطت بقريش ومكة بعلاقات اجتماعية واقتصادية قوية، حيث ملك القرشيون العقارات فيها، وأقرضوا أهلها الأموال. وقد انقسمت ثقيف إلى طبقتين : **بنو مالك والأحلاف**، كانت تدور بينهم حروب مستمرة. وكان يقيم فيها إلى جانب ثقيف، جماعات من اليهود، وقوم من الروم النصارى(١٣).

وبشكل عام ساد التناحر والتفكك والفرقة بين القبائل العربية، بسبب العصبية القبلية والمصالح الخاصة، على الرغم من الروابط القومية التي توفرت لها آنذاك؛ في الوقت الذي كان فيه الروم البيزنطيين والفرس يمعنون في إذلال العرب المجاورين لهم ويحتلون أراضيهم، ويجعلونهم أتباعاً لهم، يحاربون بعضهم بعضاً لتأمين مصالحهم من جهة، واليهود القاطنين في يثرب يثيرون الفتن والضغائن بين القبائل العربية لتتقاتل؛ وهم يستغلون هذا الصراع ليرسخوا سيطرتهم على شؤونها الإدارية والسياسية والاقتصادية من جهة أخرى.

ثالثاً: ملامح الحياة الاجتماعية والاقتصادية

١. الوضع الاجتماعي:

قام التنظيم الاجتماعي عند العرب في العصر الجاهلي على **القبيلة**، حيث كان أساس الانتماء إليها هو رابطة الدم ــ التي تربط الفرد بالجد الأعلى للقبيلة الذي تحدر منه أفراد القبيلة عموماً ــ والولاء، أو التحالف، فقد كان ينضوي تحت جناح القبيلة أفراد أو جماعات، لأسباب مختلفة، كان من أهمها دائماً شعورهم بالضعف في محيط الأقوياء، ثم بتطور الأمور إلى تحالفات قبلية، أو تحالفات يغلب عليها الطابع السياسي والحربي. وتتألف القبيلة من مجموعة من أسر أو عشائر تربط بينها أواصر القربى والنسب والمصالح المشتركة (العصبية). وتكبر القبيلة أو تصغر وفق تفرع يتوالى في عشر درجات: الأصل (الجذم)، الجمهور، الشعب، القبيلة، العمارة، البطن، الفخذ، العشيرة، الفصيلة، الرهط (وهم أسرة الرجل وأهل بيته الذي هو نواة القبيلة). ومن حيث الأصل كانت القبيلة تتكون من ثلاث فئات: الأحرار: وهم أبناء القبيلة الصرحاء أبناء الدم الواحد، وطبقة الموالي: وهم أحرار انضموا إلى القبيلة بطريق الحلف أو الجوار أو العتقاء من الأرقاء ، ثم طبقة الأرقاء ممن أسروا أو اشتروا وهم في وضع اجتماعي سيء (١٤).

وكان شيخ القبيلة ــ الذي يجب أن يتحلى بصفات الكرم والشجاعة والحلم والنجدة والصبر والتواضع والشيخوخة والبلاغة والغنى وكثرة الأنصار وقول الحق... ــ هو زعيمها والمدبر لشؤونها في السلم والحرب، والممثل لها في علاقاتها مع غيرها من القبائل والمسئول عن تأمين متطلبات جميع أفراد القبيلة دون استثناء. وهو يتمتع بحقوق مادية إلى جانب واجب الاحترام والتقدير، اللذين يؤهلانه ليكون زعيماً بكل ما يحويه هذا المفهوم من صلاحيات ومسؤوليات، ويساعده **الوجهاء** الذين يمثلون بدورهم البطون والأفخاذ ....، ويشكلون بعد **الشيوخ** الطبقة الثانية من طبقات القبيلة، ويأتي بعدهم طبقة **الفرسان**، ثم طبقة **عامة** أفراد القبيلة، وأخيراً طبقة **الخدم**.

كان الرباط العشائري هو الذي يوحد القبيلة إلى جانب وحدة اللغة (اللهجة) والثقافة والمكان، حيث يسود الشعور بين أفراد القبيلة الواحدة بالهموم المشتركة والمصير المشترك (١٥).

وقد وجدت في المجتمع في هذه الحقبة فئة من الأفراد فقدت توافقها معه، فانصرفت إلى لون حيادي من الحياة الاجتماعية؛ وبالغت في التمرد على النظام

القبلي، وتزعت إلى الإغارة للسلب والانتهاب كالشعراء الصعاليك والسود والأغربة (الخلعاء)(١٦).

وقد ظهر في الحجاز (مكة) نوع من التضامن القبلي المبني على أساس المصلحة الاقتصادية التجارية البرجوازية المشتركة، حيث تبدى على شكل أحلاف مختلفة (المطيبين، لعقة الدم، الفضول...)، تطورت لاحقاً لتؤدي إلى إضعاف الروابط على أساس قرابة الدم، ونشوء روابط موحدة جديدة(١٧).

يمكن القول أن الطبيعة في الجزيرة العربية قد قست على سكانها، ذلك أن اتساع الصحراء وشح المياه، وفقر الغطاء النباتي؛ أدى إلى التنافس من أجل البقاء، والسيطرة على الموارد الطبيعية، والطرق التجارية؛ مما عرقل عملية توحيد قبائل الجزيرة العربية المتناثرة هذا من جهة، ومن جهة أخرى، كان اعتماد أغلبية سكان الجزيرة العربية على الرعي في معاشهم وحياتهم، ودوام ترحالهم وتنقلهم بحثاً عن الكلأ والماء، سبباً في تواصل الغزو والاقتتال بينهم، حيث كان يرافقه نهب الأموال والثروات. فالحروب لم تنقطع بين القبائل العربية فيما بينها، أو بينها وبين جهة أجنبية (الأعاجم من الفرس والروم)، وكانت صداماتهم تعرف بـ الأيـــام، وقد تنوعت أسباب هذه الحروب، فهناك:

ـ أسباب اقتصادية كالتنازع على المراعي والمواطن والطرق وكان دائم الحدوث.

ـ أسباب نفسية كما في حرب داحس والغبراء.

ـ أسباب سياسية نتيجة لحب السيطرة والاستئثار بالحكم كالنزاع بين الأوس و الخزرج، ربيعة ومذحج... الخ.

ـ أسباب نتيجة تدخل خارجي وبواعث أجنبية كيوم حليمة وعين أباغ ، حيث كان الروم البيزنطيين والفرس خلف الصراع بين الغساسنة والمناذرة.

ـ أسباب اقتصادية قومية كما في يوم ذي قار بين العرب والفرس(١٨).

أما وضع المرأة فقد كان يتراوح بين السمو وحرية السلوك والملكية والمشاركة في الحياة العامة في طبقة السادة، وبين الاضطهاد والمعاناة والظلم في الطبقة الدنيا.

وقد تميز المجتمع في حقبة العصر الجاهلي بعدد من السمات إضافة إلى التقاتل والتنازع، كالثأر والتعاون في العداوة (أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)، ووأد البنات، وشرب الخمر، ولعب الميسر، وأخذ الربا... هذه السمات التي تدل على الجهل بمعنى: الحمية والنزق والتسرع والطيش والتهور والهياج... ، والتي هي عكس الحلم والتروي والحكمة؛ وليس المعنى الثاني للجهل نقيض العلم (١٩). ومن

ناحية الأخلاق والمثل التي كانت تسود في المجتمع فإننا نجد أن المروءة (الإسراف في الكرم، والشجاعة، وحب الضيف، الوفاء، والنجدة، وإغاثة الملهوف، الصبر في المكاره، والحد من تسلط الظالم...) هي الكلمة التي تلخص جميع الصفات الطيبة التي كان يتحلى بها العرب قبل الإسلام.

٢. الوضع الاقتصادي:

كان اقتصاد العرب في العصر الجاهلي يقوم على الرعي وتربية الحيوانات كالإبل والخيل والأغنام، وعلى الصيد والقنص،إضافة إلى زراعة بعض المحاصيل وخاصة في الجنوب كالنخيل والأعناب والحبوب كالشعير والقمح في المجتمعات المستقرة. وبشكل عام لم يكن العربي يميل إلى ممارسة الحرف الصناعية؛ بل كان يأنف من العمل اليدوي.على الرغم من ذلك فقد مارس بعض سكان المناطق الصالحة للزراعة في يثرب والطائف وجنوب الجزيرة العربية الزراعة بقدر ما سمحت به البيئة الطبيعية بحيث كان يكفي الاستهلاك المحلي. وعرف العرب من بين الصناعات التعدين والصناعات المعدنية واشتهرت لديهم صناعة الأسلحة (السيوف)، وصناعة الأواني الفخارية، وبعض الصناعات الغذائية، والصياغة، والنجارة، وصناعة الحدادة التي ارتبطت بالزراعة في بعض الحواضر، حيث صنعت الأدوات الزراعية المختلفة. وصناعة الغزل والنسيج، والدباغة... .

إن قلة الموارد المائية وبالتالي الزراعية، التي حرمتها الطبيعة للجزيرة العربية، عوضها الموقع الجغرافي الفريد الذي تمتعت به، والذي جعل العرب يحتكرون الوساطة التجارية بين الشرق والغرب منذ القديم، حيث شغلت التجارة الدور الأهم في الاقتصاد بما كانت توفره من مورد أساسي يعتمد على تصدير الطيوب والتوابل من جنوبي الجزيرة العربية إلى مصر وبلاد الشام، وعلى نقل السلع من الشام إلى الشواطئ الأوروبية؛ فقد مثل الحجاز جسراً ربط بين بلاد الشام وحوض البحر المتوسط وبين اليمن والحبشة والصومال والسواحل المطلة على المحيط الهندي. أما في الحواضر فقد تاجروا بالطيب والمر والبخور والقرفة، وبدلوا نتاج البادية من الأغنام ووبر الجمال والجلود بسلع يحتاج إليها البدو كبعض مصنوعات التعدين والمنسوجات. وكانوا يأخذون رسوماً على حماية القوافل وإرشادها، وكانت مكة في قلب الجزيرة العربية مركزاً دينياً يمثل دخلاً ربيحاً من موارد الحجيج الذين كانوا يفدون إليها كل سنة.

وقد نجح العرب بممارسة الأعمال التجارية المختلفة، ونجحت بعض أقوام الجزيرة العربية من عمانيين، ويمنيين، وحضارمة وغيرهم من الوصول إلى الهند،

واندونيسيا، والملايو، والصين، والشرق الإفريقي وذلك قبل ظهور الإسلام بوقت طويل. كما عمل الكثيرون من أهل الحجاز بالتجارة ومهر بخاصة المكيون؛ حتى ضرب فيهم المثل(٢٠). وكانت الأسواق مظهراً مهماً للنشاط الاقتصادي، حيث كانت تقام في مواسم وأماكن محددة وتتم فيها إلى جانب عمليات المتاجرة الكثير من الفعاليات الاجتماعية والسياسية والفكرية.

من دراسة الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية يمكن استنتاج ما يلي: إن الطبيعة الجغرافية هي التي جعلت مكة تتبوأ مركز الصدارة في التجارة لتنافسها زراعياً المدينة والطائف، وليتنتج عن ذلك نشوء العديد من الصناعات، فقد تطورت قوى الإنتاج، وتوسعت أعمال الصناعة، وازداد الإنتاج، وتجمع فائض للتبادل ،وحدث تقسيم للعمل جديد، وانفصلت الحرفة عن الزراعة، وارتبط الإنتاج الصناعي بسوق التبادل التجاري، وازدهرت حواضر عديدة، ونظمت الأسواق الموسمية، و عقدت الاتفاقات التجارية، وارتبطت أعداد كبيرة بالعملية التجارية، فازداد العرب تقارباً و تآلفا على أساس المصلحة المشتركة، إلا ان الملكية الجماعية للأرض والكلأ والماء تلاشت وحل محلها الملكية الخاصة، فكانت معظم الأراضي ملكا للكبار والأثرياء، واستتبع التفاوت في الملكية والثروة تفاوتاً في المعيشة، وتمايزاً اجتماعياً بين أفراد القبيلة الواحدة، وانقسم أبناؤها الأحرار إلى أغنياء إقطاعيين وبرجوازيين وفقراء. إضافة إلى الانقسام الذي كان قائما بين الأحرار والعبيد، ومن ثم أصبح الفقراء يعملون لحساب الأغنياء وأصبح للمال الدور الأول في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وأثر بشكل كبير على تطور العلاقات في المجتمع حيث انتشر السماسرة ونشط الصيارفة الذين عمدوا إلى المضاربة والغش والتزوير والإقراض بفوائد فاحشة (الربا) فوصلت الفائدة إلى٥٠ % مما أدى إلى معاناة الفقراء وازدياد الفوارق الطبقية (٢١).

رابعاً: الحياة الدينية

على اعتبار أن الدين ظاهرة اجتماعية؛ فإن لكل دين ظهر في التاريخ جذوره التاريخية والمعرفية المتعلقة بالواقع البشري والموطن الذي ظهر فيه؛ فهو يرتبط بمستوى تطور العقل البشري وقدرته على الفصل بين الفكر والواقع.

ومع تطور قوى الإنتاج في الجزيرة العربية، وتأثيراته على بنية المجتمع، وتقسيم العمل، ظهرت أشكال متعددة من الأديان: كالطوطمية والوثنية والحنيفية (دين إبراهيم الخليل) والتوحيدية (اليهودية والمسيحية)... الخ. وقد تلقى العرب تأثيرات داخلية عربية وخارجية أجنبية، بحكم صلاتهم التجارية والحضارية فيما بينهم أولاً ومع الدول المعاصرة لهم ثانياً. ويرد في القرآن الكريم ذكر لما احتوته الحجاز من عبادات مختلفة، وتفيد في هذا المجال الأحاديث النبوية الشريفة، والشعر الجاهلي، وكتب التاريخ والأدب والمعاجم المتنوعة(٢٢).

لقد كثرت العقائد والعبادات في العصر الجاهلي، وكان معظمها مزيجاً من الحسية والنفعية والخيال، متأثرة بضروب من التقديس تجلت في عبادة مظاهر الطبيعة وارتبطت بالأماكن والأسلاف، أو بالأزمات الشديدة؛ فقد عبدوا الأشجار والكواكب والأحجار، وبعض الموجودات التي عرفتها بيئتهم. وتلك المعبودات التي آمنوا بحلول الروح فيها، والتي كانت ترمز إلى آلهة متعددة شاعت تسميتها بالوثنية paganism، وتمثلت عند عرب الجاهلية بالأوثان والأصنام.

ومن أشهر أصنامهم التي كانت **تعبدها القبائل عامة**: مناة واللات والعزى؛ وهي آلهة مؤنثة كانت في شمال الجزيرة العربية. وكان لهم في جنوبيّها ما عرف بأصنام قوم نوح، وهي: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر والمقه (سَن) والزُهرة (ابن الشمس والقمر) وعرفت باسم عشتر. ومن أصنامهم أيضاً: نُهم وسُعير وإساف ونائلة والأقيصر واليعبوب وذو الكفين وذو الشرى، وذو الخلصة... . وكانت كل **قبيلة تتخذ لنفسها صنما** تتقرب إليه بتقديم القرابين وذبح الذبائح، وأشهر وأول صنم كان لقريش هو هبل الذي أدخله إلى الجزيرة العربية عمرو بن لحي (ربما ٢٥٠م)، وكانت قريش تتقرب إليه بمائة جزور، وتضرب عنده بالقداح على ما يريدون.

ومن مظاهر الوثنية العربية ظهور فئات لها تقاليد وأساليب في العبادة تختلف عن المألوف عند غيرهم. ومن هذا النوع فئات **الحمس والحلة والطلس**:

وإلى جانب الأصنام والأوثان عرفت تسمية **الأنصاب والكعبات والمعابد** حيث كانت **الكعبة في مكة** أعظمها وأعلاها مقاماً، حيث كانوا يفزعون إلى بيت الله الحرام.

في الذوائب التي تصيبهم لاعتقادهم الراسخ بأنها بيت الله؛ إله الكائنات كلها ورب الأرباب كلها(٢٣).

وقد وجد إلى جانب الوثنية نحل وديانات أخرى، كالصابئة التي يقوم أتباعها بعبادة النجوم والكواكب، وقد كانت منتشرة في اليمن وحران والبحرين والحيرة في العراق، ثم الزرادشتية (المجوسية) نسبة إلى زرادشت نبي الفرس القدماء، وهي ديانة رمزية تقول أن العالم تحكمه قوتان هما الخير والشر (النور والظلمة)، واتخذ أتباعها النار رمزاً لعبادتهم كباقي الفرق المجوسية، وسادت في بلاد فارس والبحرين.

كذلك عرف العرب عبادة قوى غيبية خارقة وصفت بالجن أو الملائكة، وكانت قريش تعبدها وتدعي أنها بنات الله، وعرفوا الكهان والمنجمين والعرافين وأمثالهم ممن ادعوا معرفة الأسرار والغيب وزعموا بوجود تابع من الجن يلقي إليهم الأخبار. وعلى ما يبدو أن هؤلاء الكهنة هم من كان يشرف على ترتيب شعائر الحج وطقوس العبادة حول الكعبة(٢٤).

وقد ساد عند بعض العرب الاعتقاد بإله واحد، الذي ترسخ بمجيء إبراهيم (عليه السلام) ، فكان من مظاهر التوحيد الديانة الحنيفية ـــ الحنيف هو الذي يستقبل قبلة البيت الحرام على ملة إبراهيم أو الذي كان يتحنف عن الأديان، أي يميل إلى الحق ـــ وكان أتباعها يؤمنون بإله سماوي واحد، وقالوا بوجوب نبذ عبادة الأصنام والتخلص من بعض العادات الجاهلية كشرب الخمر ولعب الميسر ...، وقد أطلق على هؤلاء تسميات: الحنفاء، الثائبين، النساك، وورد اسمهم في القرآن الكريم عدة مرات(٢٥) .

انتشرت اليهودية والنصرانية(المسيحية) في الجزيرة العربية، وهما ديانتان سماويتان كتابيتان تدعوان إلى إله عظيم. وقد انتشرت اليهودية في اليمن ووادي القرى وخيبر وتيماء ويثرب... ، ووجدت النصرانية جنوب الجزيرة العربية، وبين قبائل تغلب وقضاعة وغسان في الشمال، ودان بها معظم أهالي الحيرة، وكان دخولها بفضل جهود المبشرين السريان منذ القرن الرابع الميلادي مع دعم من الإمبراطورية البيزنطية، ذلك أن الدافع الرئيسي لهم كان التنافس القائم للسيطرة على الجزيرة والتحكم بالطرق التجارية بين الروم البيزنطيين والفرس، وهو في الوقت ذاته الذي دفع الفرس لتشجيع اليهودية ومناصرتها..

وكانت نتيجة هذا التنافس أن تعرض جنوب الجزيرة العربية للغزو الحبشي الموجه بدعم من الإمبراطور جستنيان الأول بعد حادثة حرق ذي نواس للنصارى في نجران عام٥٢٢م، حيث تمكن أرياط قائد الحملة ومساعده أبرهة من فرض سيطرة الأحباش على الجنوب، والإساءة للسكان المحليين، مما دفع بزعيم المقاومة اليمنية

سيف بن ذي يزن، للاستنجاد بالفرس، من أجل طردهم الذي تم عام ٥٧٥م، وشكلت حكومة بقيادة مشتركة يمنية فارسية، واستمر النفوذ الفارسي في اليمن حتى دخل باذان آخر ولاة الفرس في الإسلام، زمن الرسول ﷺ(٢٦). لقد أشار القرآن الكريم إلى الحالة الدينية لعرب الحجاز في العديد من الآيات، التي يتبين من استعراضها أن العرب كانوا يعرفون الله ويعبدونه ؛ غير أنهم إلى جانب معرفتهم بالله وعبادتهم له، جعلوا له شركاء أقل منه لهم صفة الشفعاء لعابديهم عند الله سبحانه(٢٧).

وأخيراً يمكن الاستنتاج أن عرب الجزيرة العربية لم يعتمدوا فكرة دينية واحدة تجمع صفوفهم وتعزز مكانتهم، بل عاشوا نوعاً من عدم الاستقرار النفسي، الذي انعكس في حيرة وترقب وبحث عن الخلاص للوصول إلى دائرة اليقين، فقد كانوا بأمس الحاجة إلى فكرة سامية تجمعهم وتوحد إمكاناتهم؛ حتى جاء النبي ﷺ يدعوهم إلى عبادة الله وجمع شملهم ، وشكل منهم نواة دولة قوية وأمة موحدة حملت رسالتهم إلى معظم أرجاء العالم.

خامساً: مظاهر الحياة الفكرية عند العرب قبل الإسلام

لقد شاع أن العرب في الجاهلية لم يتمتعوا بنصيب من العلم والمعرفة؛ ولهذه الأفكار أسباب متعددة أهمها:

١. إن الصفة الغالبة على العرب أنهم أعراب يقطنون الصحراء، ولكن عند الدراسة نجد أن أكثرهم كانوا يقطنون المدن والقرى والأرياف، وحتى سكان البادية كانوا على اتصال دائم بالمدينة أو القرية (للتبادل الاقتصادي، وللانتجاع والصيد).

٢. إن في خبر استرضاع الرسول ﷺ في بادية بني سعد؛ تأكيد على أن السادات من قريش كانوا يحرصون على تربية أبنائهم في البوادي، ليصحوا أجساماً، وليفصحوا لساناً.

٣. مبالغة المؤرخين القدامى في تجريد أهل الجاهلية من كل القيم الثقافية والحضارية، لبيان أثر الإسلام في نهضتهم ورقيهم؛ متجاهلين أن الإسلام جاء ليكمل مكارم الأخلاق، وليحطم البداوة واتجاهاتها الفردية، وليقضي على العصبية ــ التي ساهمت قبل الإسلام وبعده في تدمير الأمة ــ وليحل رابطة الدين والعقيدة وتوطيد أواصر المحبة والتعاون بين البشر.

٤. اهتمام الباحثين الأقدمين بالأدب والشعر والحروب وعدم تخصيص أبحاث للنواحي الثقافية والاجتماعية والاقتصادية.

٥. إن علم العرب بقواعد اللغة العربية والعروض، كان أوسع من معرفتهم بها في القرون التالية؛ وذلك باعتراف ابن فارس الذي عاش في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي.

استناداً إلى ما سلف يمكن القول أن العرب كانوا على قدر من المعرفة في علوم عصرهم لايقل عما هو عليه لدى الفرس والروم المجاورين لهم. وقد عرف العرب العلوم التالية واشتهروا في بعضها:

العلوم اللغوية:

تحدث عرب الشمال اللغة العربية، ولكن بلهجات متعددة، بتأثير التحضر والبداوة ــ فاللغة ظاهرة اجتماعية لابد أن تتأثر بكافة جوانب الحياة الاجتماعية ــ وقد أجمع العلماء على أن لهجة قريش كانت أفصح لهجات الشمال وأحسنها، وصارت مضرب المثل لسائر العرب؛ وغدت اللهجة الأم للعربية وأصبحت دافعاً لدمج لهجات العرب،

وأسهمت الأسواق التي كانت تنصبها قريش منذ مطلع القرن السادس الميلادي بدور ملحوظ في التوحيد؛ خاصة أسواق الحجاز (عكاظ، مجنة، ذوالمجاز...) حيث رافق هذه الأسواق – إلى جانب الفعاليات الأخرى – مواسم أدبية وثقافية، يحضرها كبار الشعراء والخطباء ويتبارون في الشعر والخطابة ...(٢٨) . وللتفصيل في العلوم اللغوية سيتم تناولها تباعاً:

- **الشعر**: وهو أشهر وسيلة تعبير عرفها العرب، وذلك بسبب غلبة الأمية عليهم، وبالتالي فقد كانت ثقافتهم شفوية، وهو ديوان العرب وأخطر وسائل الإعلام في تلك الأيام، ومَعلم رئيسي من معالم الثقافة العربية قبل الإسلام ، عبر عن مميزات الحياة العربية القبلية والبيئية، وهو يعد مصدراً تاريخياً موثوقاً لمعرفة أوضاع العرب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، وقد حظي الشعراء بمكانة رفيعة فشكلوا الطبقة المثقفة في المجتمع، وكانوا ممثلي قبائلهم في المحافل المختلفة، ولعل وجود المعلقات يدل على الاهتمام الكبير بالشعر في هذه الحقبة؛ لدرجة أنه حتى أن كلمة الشعر في لغة العرب كانت تعني العلم، وهنا يجب أن لا يغفل التنويه عن دور الشعر في التسريع بتوحيد العرب، والترويج للأسباب الموضوعية الممهدة لقيام دولة الرسول ﷺ في يثرب(٢٩).
- **الخطابة**: من فنون النثر، وهي فن مخاطبة الجمهور،الذي يعتمد على الإقناع والاستمالة والتأثير؛ لإقناعهم برأي أواستمالتهم إلى مبدأ أو توجيههم إلى ما فيه الخير لهم في دنيا أو آخرة، وتعد من ضرورات الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية؛ ففي السلم للمفاخرة، والمنافرة (المفاخرة بين اثنين أو أكثر من سادة العرب)، وفي الحرب لتثبيت الجنان وتحميس الجبان وبعث الحمية في النفوس وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف.

الخطابة كالشعر تحفظ مآثر العرب وتعظم شأنهم، ولهذا كانت لها مكانتها، وكان الخطباء عادة من السادة ذوي الصدارة في قبائلهم بعكس الشعراء الذين كان أغلبهم ينتمي إلى الطبقة الفقيرة والمسحوقة. وكانوا يقومون بوظائف السفراء لقومهم، والفصاحة والبلاغة أحد الشروط لاختيار شيخ القبيلة(٣٠).

- **الكتابة**: وصل العرب في الجاهلية إلى درجة من فن الكتابة تقربهم إلى مصاف أمم ذلك العصر، وتؤهلهم إلى جانب خصائص أخرى لحمل الرسالة الإسلامية. ساهم في هذه النهضة الدافع الذاتي وحب المعرفة والمنافسة للوصول إلى الكمال الاجتماعي، حيث كانت شرطاً لابد منه للعربي ليكون ذا

مكانة مرموقة؛ فكان من يحسن العوم والرمي والشعر والكتابة، يسمى إنساناً كاملاً(٣١).

إضافة للعلوم اللغوية عرف العرب وأتقنوا علوماً مثل:

- **الفلسفة والحكمة:** الحكمة هي قول بليغ موجز يصدر عن عقل وتجربة ويتضمن حكماً صحيحاً. وتعد الأمثال خير مثال يعبر عن مفاهيم الحكمة والقيم الأخلاقية والمثل الإنسانية، وكذلك يحتوي الشعر والنثر في ثناياهما حكم كثيرة ومتنوعة تتعلق بالأخلاق وتتجه لأن تكون فلسفة خالصة تتعلق بنظرية المعرفة، العدل، الحرية، الحلم، الشورى... الخ (٣٢).
- **الأنساب:** فن عربي أصيل، حيث تفاخر العرب بأنسابهم في كل مناسبة، لأنه كان من الضياع في عرفهم أن يجهل امرؤ نسبه أو أن يكون دعياً أو ملصقاً أو زنيماً(٣٣)، حيث أن الحفاظ على تسلسل النسب هو اعتداد بانتمائهم إلى أصلهم العربي، وقناعتهم بشرف الانتماء إليه. كانوا يحفظون النسب إلى الجد الخامس على الأقل. وقد حظي علماء الأنساب بألقاب الإجلال وتمتعوا بالمهابة والتقدير؛ واحترام رأيهم فيما يستفتون فيه من معضلات (٣٤).
- **الفراسة:** وهي الاستدلال بهيئة الشخص وشكله ولونه وكلامه على أخلاقه وفضائله ورذائله " الاستدلال بالأحوال الظاهرة في الجسد على الأحوال الباطنة" (٣٥)، ومرجعها إلى العقل، فكلما كان أكمل كانت أقوى. وقد اشتهر العرب بالفراسة وبالعلوم الأخرى التي ترتبط بها وتقود إليها مثل:
- **القيافة:** (قيافة الأثر، وقيافة البشر) وهي تتبع آثار الأقدام والخفاف والحوافر والاستدلال بها على أصحابها. وقد كان لدى العرب خبرة متميزة في هذا المجال، حيث كان يمكن من خلال تتبع آثار إنسان معرفة بعض صفاته وعمره ووجهته، وكانوا يستخدمون هذا العلم لملاحقة الفارين والسارقين، وتتبع الضالين من الإنسان والحيوان ويعرف من يمارسها بالقَصّاص(٣٦).
- **الكهانة والعرافة:** وهي الإخبار عن المغيبات(ماضية أومستقبلة أو حالية)، اعتماداً على القرائن أو النجوم أو على الحصى أو الجن في زعمهم، أو في قياس المستقبل على الماضي. وقيل أنهما شيء واحد؛ وقيل أن الكهانة خاصة بالمستقبل، والعرافة خاصة بالماضي.
- **الرياقة:** معرفة استنباط المياه عن طريق الإشارات الدالة على وجودها، وعن قربها وبعدها (عمقها) عن سطح الأرض(٣٧).

- **العيافة:** زَجْرُ الطّير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها ومَمَرّها، وهي من عادات العرب، نجدها كثيراً في أخبارهم وأشعارهم (٣٨).

وقد عرف العرب العلوم التجريبية، التي وصل مستوى معارفهم فيها لدرجة متناسبة مع زمنهم(الرياضيات، الفلك، الطب...).

- **الرياضيات:** عرف العرب أسماء الأعداد والآحاد والعشرات والمئات والألوف، وفي علم الجبر عرفوا المعادلة البسيطة ذات المجهول الواحد، ويستدل عليها في أشعارهم وكثرة القول فيها(٣٩).
- **الفلك (الهيئة):** علم دراسة النجوم والأجرام السماوية، الذي يرصد مواقعها وتحركاتها لتعيين الأوقات الزمنية، وقد أولاه العرب اهتماماً كبيراً وذلك لحاجتهم لمعرفة أحوال الطقس، وللاهتداء في السير على الطرق لأنهم يعملون بالتجارة .استفاد العرب من المعارف الفلكية في العراق، فكانت مبادئه معروفة عند العرب الحضر مثل اليمنيين والكلدانيين، أما في البادية فاقتصر على ما توارثته الأجيال بما يدرك بالعين، على أنهم عرفوا النجوم بأسمائها ومواضعها ومطالعها ومغاربها وبعض خصائصها، وميزوا بين الكواكب الثابتة والسيارة، واهتموا بالقمر لملامسته كافة جوانب حياتهم؛ فهو دليلهم في أسفارهم وأنيسهم في أسمارهم، وحركته كانت أوضح السبل لحساب الأشهر والسنين التي حسبوها بالقمر. ومن الممكن أن العرب أخذوا عن الكلدانيين أقسام الزمن كالأسبوع، واليوم وتقسيماته ــ الليل والنهار ــ بالساعات وتسميتها وفق اختلاف النور والظلام.
- **الأنواء:** وهي تبدل الأحوال الجوية من حر وبرد ورياح وأمطار، وكان يتبع علم الفلك . وعد عرب الجاهلية الكعبة موضعاً وسطاً، ومركزاً لتفرع الجهات الأربع، وأن هبوب الريح موافقة للجهات الأربع المحيطة بالكعبة وكل ريح تحمل معها نوءاً (مطراً) معيناً تبعاً للجهة التي تأتي منها (٤٠).
- **الطب:** كان للجاهليين معرفة جيدة بالطب. وكانت مكتسبة إما بالتجارب (بتوارثوتها عن مشايخهم وعجائزهم)، أو منقولة عن غيرهم من الأمم المعاصرة لهم؛ فقد ظهر بينهم أطباء درسوا الطب في بلاد الروم أوالفرس، حيث استفادوا من خبرة هذه البلدان وأضافوا إلى ذلك خبرتهم بعقاقير بلادهم. وكانوا يعالجون مرضاهم بخلاصة النباتات، أو بالعسل، أو بالكي، وأحياناً بالبتر وبالحجامة. وقد أتقنوا فنون الطب واستخدام الوسائل المختلفة في المداواة والعلاج، وبرعوا في الجراحة وأمراض العين، وعرفوا عدداً كبيراً من الأمراض كالحمى وأمراض الكبد والقلب والكلى... الخ. واشتهر لديهم عدد من الأطباء أمثال: الحارث بن كلدة الثقفي، ولبنه النضر، وابن أبي

رمثة وغيرهم. و على الرغم من ذلك امتزج الطب بالشعوذة والرقى والسحر والطلاسم، مما كان يمارسه الكهنة والعرافون(٤١).

• وكان لدى العرب خبرتهم المشهورة في مجال **الطب البيطري**، وخصوصاً في مجال معالجة الخيول، والإبل...، وقد اهتموا به لما للحيوان من دور مهم في حياتهم واقتصادهم (٤٢).

• **الغناء:**

يرجع أهل الأخبار غناء الجاهليين إلى ثلاثة أوجه: **النصب والسناد والهزج.** **والنصب:** هو غناء الركبان والفتيان والقيان، ويغنى كذلك في المراثي، ومنه أصل الحداء، وهو أقدم أنواع الغناء عند العرب، يغنى به في الأسفار على الإبل خاصةً، ولا يزال على مكانته في البادية. ويتغنى به في المناسبات الحزينة أيضاً لموائمة نغمته مع الحزن. أما **السناد:** فالغناء الثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات. **والهزج:** الغناء الخفيف الذي يرقص عليه ويمشي بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحليم. و على ما يبدوا كان الغناء العربي أقل تطوراً من ناحية استخدام آلات الطرب والموسيقى وفي تفاصيل قواعد الغناء مما كان قد وصل إليه الروم والفرس. وشيئاً فشيئاً وصلت بعض التأثيرات الفارسية في الغناء من خلال الرقيق والقيان الذين غنوا بالعيدان والطنابير وغيرها من آلات العزف.

وكانت تقوم في الجاهلية **المجالس الغنائية** التي تتبارى فيها المغنيات في الإنشاد الذي يرافقه العزف على الآلات. كما عرف العرب نوعاً من **الغناء الجماعي**، وكان أكثر ما يظهر في المقاطع الحماسية الجماعية عند السير إلى الحرب، والتهليل في طريق الحج.(٤٣).

وفي ختام البحث في واقع الحياة الفكرية في الجاهلية يمكن الاستنتاج؛ أنه كان للعرب سلبيات وإيجابيات كأي عصر من العصور لدى غيرهم من الأمم؛ غير أن العرب في جاهليتهم، لم يكونوا أقل إدراكاً ومعرفة لعلوم عصرهم من الأمم المعاصرة لهم. فقد كان العربي يمتاز بصفاء العقل والحرية وتوقد القريحة وقوة الحجة والفصاحة والبيان والاستدلال والاستنتاج، ولم يعش العرب على هامش التاريخ بمعزل عما كان يحيط بهم من معارف.

هوامش الفصل الأول

(١) الحموي، ياقوت: معجم البلدان، دار صادر، ط٢، بيروت، ١٩٩٥م، م٢ص٦٣، ١٣٧، ٢١٨ــ٢٢٠. الحمادي، محمد: السعودية، الموسوعة العربية، م١٠، مؤسسة الصالحاني، ط١، دمشق، ٢٠٠٤م، ص٨٧٠ــ٨٧٣. زكار، سهيل؛ خربوطلي، شكران: تاريخ الوطن العربي القديم، مطبعة جامعة دمشق، ٢٠٠٦م، ص٤٣ــ٥٢. عاقل، نبيه: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، (د.م)، ١٩٦٩م، ص٢٦.

(٢) الدارات: سهول رملية مستديرة بين التلال تستقر تحت سطحها المياه، عاقل ص٢٠.

(٣) زكار وخربوطلي: ص٥٦ــ٥٨. الحمادي: ص٨٧٠، عاقل: ص٢٠ــ٢٢.

(٤) زكار وخربوطلي: ص ٥٨ ــ ٥٩. الحمادي: ص٨٧٣. عاقل: ص ٢٢ــ٢٤.

(٥) زكار وخربوطلي: ص ٦٠. عاقل: ص٦٠. زيود، محمد: تاريخ العرب والإسلام، مطبعة الاتحاد، منشورات جامع دمشق، ١٩٩٥م، ص٧ــ٨.

(٦) الحمادي: ص ٨٧٣. زكار وخربوطلي: ص ٦٠ــ٦١. عاقل: ص٢٦.

(٧) بوبو، مسعود: الجاهلية، الموسوعة العربية، م٧، مؤسسة الصالحاني، ط١، دمشق، ٢٠٠٣م، ص٤٣٨. زكار وخربوطلي: ص٢٣٦ــ ٢٣٧. عاقل: ص٢٢٣. زيود: ص١٣.

(٨) الحموي: م٥ ص ١٨١ــ١٨٨. ابن هشام، أبي محمد عبد الملك: السيرة النبوية، مؤسسة المعارف، طبعة جديدة، بيروت، ٢٠٠٥م، ص ٥١ــ ٧١. عاقل: ص٢٢٥ــ٢٣٩. علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين ــ مكتبة النهضة، ط٣، بيروت ــ بغداد، ١٩٨٠م، ج٤ ص٥ــ١٢٧.

(٩) ابن هشام: ص٧١ــ٧٢، ١٣٨ــ١٣٩. الأزرقي، محمد بن عبد الله: أخبار مكة، تح: رشدي الصالح ملحس، دار الأندلس، مدريد، ١٣٨٥هـ، ج١ ص١٠٧ــ ١١٥. علي: ج٤ ص٣٧٠ــ ٤١٣. زكار وخربوطلي: ص ٢٤٠ــ ٢٤٣. عاقل: ص ٢٣٩ــ ٢٤٦.

(١٠) عبد الكريم، خليل: قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، سينا للنشر، ط ١، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ٣١ــ٣٢. زيود: ص١٧. عاقل: ص٢٥٣ــ٢٦٠.

(١١) زيتون، عادل: تاريخ العرب والإسلام حتى نهاية العصر الأموي، مطبعة خالد بن الوليد، جامعة دمشق، ١٩٨٢م، ص٢٧.

(١٢) ابن النجار، محمد بن محمود: كتاب الدرة الثمينة في أخبار المدينة، ملحق بكتاب شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، الجزء الثاني، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ١٩٥٦م، ص٣٢٢ــ٣٢٧.الحموي: م٥ ص٤٣٠. زيتون: ص٢٧ــ٢٨. علي: ج٤ ص١٢٨ــ١٤٢. زكار وخربوطلي: ص٢٤٧ــ٢٤٩. عبد الكريم: ص١٩٢.

(١٣) الحموي: م٥ ص٨ــ١٢. زكار وخربوطلي: ص ٢٥٠ــ٢٥١. عبد الكريم: ص١٩٢. علي: ج٤ ص١٤٢ــ١٥٧. زيود: ص١٨.

(١٤) عقيل، أديب: القبيلة، الموسوعة العربية، م١٥، مؤسسة الصالحاني للطباعة، ط١، دمشق، ٢٠٠٦م، ص٢٣١ــ٢٣٣. علي: ج٤ ص ٢٧١. داوود، أحمد: تاريخ سوريا القديم، دار الصفدي، ط٣، دمشق، ٢٠٠٣م، ص١١٩ــ١٢٥. بوبو: ص٤٣٨. القطب، سمير عبد الرزاق: أنساب العرب، دار البيان، بيروت، (د.ت)، ص٣٢ــ٣٣.

(١٥) العجم، رفيق: موسوعة مصطلحات علم التاريخ العربي والإسلامي، مكتبة لبنان، ط١، بيروت، ٢٠٠٠م، ص٥٢٠. القطب: ص٢٧٤. عقيل: ص٢٣١. عاقل: ص٢٦١ــ ٢٦٧.

(١٦) الأنصاري، فاضل: العبودية، الأهالي، ط١، دمشق، ٢٠٠١، ص١٥٩،٣١، بوبو: ص٤٤٢، العجم: ٥٢١. زكار وخربوطلي: ص٢٦٨.

(١٧) الفاسي، أبي الطيب تقي الدين محمد بن أحمد المكي المالكي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، مطبعة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ١٩٥٦م، ج٢ ص٧٥ــ ٩١. ابن هشام: ص٧١ــ٧٢. بوبو: ص٤٣٩. زكار وخربوطلي: ص٢٤١. علي: ج٤ ص٣٧٠. عبد الكريم: ص١٩ــ٣٩.

(١٨) الدينوري، ابن قتيبة: المعارف، المختار من التراث ٨٤، اختيار وتقديم منير حديد، مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ٢٠٠٠م، القسم الثاني ص٥٢١. النص، إحسان: أيام العرب في الجاهلية، الموسوعة العربية، م٤، مؤسسة الصالحاني للطباعة، ط١، دمشق، ٢٠٠١م، ص ٣٤٢ــ ٣٤٥. القطب: ص٢٧٧ــ ٢٧٩. علي: ج٤ ص ٣٣٣ ــ ٣٨٦.

(١٩) الحموي: م٥ ص١٨٤. بوبو: ص٤٣٧ــ٤٤٢. علي: ج٤ ص٦١٦. القطب: ص ٢٦٩، ٢٨٢. عاقل:ص٣٠٤.

(٢٠) بوبو: ص٤٤١. زكار وخربوطلي: ص٢٢٩ــ٢٣٦. زيتون: ص١. زيود: ص٨ــ٩. عبد الكريم: ١٦٨ــ ١٩١.

(٢١) الفاسي: ص٢٨٢. ت. ج: أسواق العرب، الموسوعة العربية،م٢، مؤسسة الصالحاني، ط١، دمشق، ٢٠٠٠م، ص٤٤٩ــ ٤٥٥. زكار وخربوطلي: ص٢٣٦. عبد الكريم: ص١٨٩ــ١٩٨. علي: ج٤ ص٢٥٧.

(٢٢) ابن هشام: ص٤٥. المسعودي،علي بن الحسين: مروج الذهب، دار الأندلس، ط١، بيروت، ١٩٦٥م، ج٢ ص١٠٢ــ١٣١. زكار وخربوطلي: ص٢٥١. عاقل: ص٢٦٧.

(٢٣) بوبو: ص٤٤٠. زكار وخربوطلي: ص٢٥٢ـ٢٥٩. عاقل: ٢٦٨ــ ٢٨٧. الجزور : ما يجزر (يذبح) من النوق أو الغنم، المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، ط٣٦، بيروت، ١٩٩٧م، ص٨٩.

(٢٤) بوبو: ص٤٤١. زيود: ص٢٠.

(٢٥) القرآن الكريم: المكتبة العربية والمكتبة الهاشمية، دمشق، ١٩٧٢م، الأنعام ٧٦ــ٧٩، آل عمران ٦٨. الأنصاري: ص٣١.

(٢٦) ابن قتيبة: القسم٢ ص٥٢٩. بوبو: ص٤٤١. عاقل: ص٢٦٧. بيوتروفسكي، م. ب.: اليمن قبل الإسلام، تر: محمد الشعيبي، دار العودة، ط١، بيروت، ١٩٨٧م، ص ٧٦.

(٢٧) القرآن الكريم: المؤمنون ٨٤ــ٨٩، العنكبوت ٦١ــ٦٣، لقمان ٢٥، الزخرف٨٧، ... .

(٢٨) شُرّاب، محمد حسن: تاريخ الكتابة وتدوين العلم في العصر الجاهلي والقرن الهجري الأول، دار الصديق، الطبعة الأولى، دمشق ــ بيروت، ٢٠٠٥م، ص٥٢ــ٦٠. ت.ج: ص٤٤٩ــ٤٥٥. فاخوري، محمود: الأدب العربي، الموسوعة العربية م١،مؤسسة الصالحاني للطباعة، ط١، دمشق، ١٩٩٨م، ص٦٢٦ــ٦٣٤. القطب: ص٢٦٤.عبد الكريم: ص٢٠٣.

(٢٩) عبد الكريم: ص٢٠٥. فاخوري: ص٦٢٦.

(٣٠) عبد الكريم: ص٢١٥. فاخوري: ص٦٣١. القطب: ص٨١.

(٣١) شُرّاب: ص٥، ٢٥ــ٤٤. زيود: ص٢٧ــ٢٨.

(٣٢) زيود:ص٢٧. فاخوري: ص٦٣٠. القطب: ص٢٧٦.

(٣٣) زنيماً: اللاحق بقوم ليس منهم ولا هم يحتاجون إليه، المنجد في اللغة والأعلام، ص٣٠٨.

(٣٤) القطب: ص٩. داوود: ص١١٣ــ١٢٥.

(٣٥) الرازي، الإمام فخر الدين: الفراسة، تح: مصطفى عاشور: مكتبة القرآن، القاهرة، ١٩٨٧م، ص١٢. حقي، إحسان: علم الفراسة، دار النفائس، ط٢، بيروت، ١٩٨٣م، ص٧. القطب: ص٢٧٣.

(٣٦) الرازي: ص٣١. المسعودي: ج٢ ص١٤٤ــ١٥٠. عمار، سام: الفراسة، الموسوعة العربية م١٤،مؤسسة الصالحاني للطباعة، ط١، دمشق، ٢٠٠٦م، ص٣٤٤. القطب: ص٢٧٣.

(٣٧) المسعودي: ج٢ ص١٥١ــ١٧٦. القطب: ص٢٧٤. زكار وخربوطلي: ص٢٨٤. عمار: ص٣٤٤.

(٣٨) المسعودي: ج٢ ص١٤٨. ــ أبو زيد، علي: العيافة، الموسوعة العربية، م١٣، مؤسسة الصالحاني، ط١، دمشق، ٢٠٠٥م، ص٦٣٩.

(٣٩) زيود: ص٢٥.

(٤٠) المسعودي: ج٢ ص١٩٣ــ١٩٦. ــ فوق العادة، فايز: الفلك عند العرب، الموسوعة العربية م١٤،مؤسسة الصالحاني للطباعة، ط١، دمشق، ٢٠٠٦م، ص٦٩٦.

(٤١) القطب: ص٢٧٦. زكار وخربوطلي: ص٢٨٥. زيود: ص٢٨.

(٤٢) القطب: ص٢٧٦. زكار وخربوطلي: ص٢٨٦.

(٤٣) علي: ج٥ ص١٠٥ــ١٢٣.

الفصل الثاني

الدعوة الإسلامية

(عصر الرسول محمد بن عبد الله ﷺ)

أولاً: الحقبة المكية:

١. مرحلة ما قبل البعثة:

أ. أصله ونسبه: هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ابن كلاب، ولأجداد الرسول ﷺ ماض مجيد في حياة مكة السياسية. فقصي بن كلاب هو الذي جمع قبائل وبطون قريش في كيان موحد، مما مكنه من انتزاع سيادة مكة من خزاعة، وتنظيم شؤونها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وأورث ذريته مكانة ونظاماً حتى بزوغ فجر الإسلام (١).

ب. ميلاده ونشأته: ولد ﷺ يوم الاثنين في النصف الأول من شهر ربيع الأول في عام الفيل الذي وافق العشرين من نيسان ٥٧١م. وقد ولد بعد وفاة أبيه عبد الله بن عبد المطلب؛ فكفله جده عبد المطلب الذي أحبه وتوسم فيه الخير وأرسله على عادة الطبقة العليا في المجتمع المكي إلى البادية ليعيش في جوها النقي ويكتسب سلامة البدن وصحة النطق وفصاحة اللغة حيث ظل مع مرضعته حليمة السعدية في منازل قبيلتها سعد هذيم حتى بلغ الخامسة من العمر. في السادسة وثلاثة أشهر من عمره توفيت أمه آمنه بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة (فهي متصلة النسب بأبيه في جدهما الأكبر كلاب والد قصي)، وبعدها بعامين توفي جده، فكفله عمه أبو طالب، فعاش مشمولاً برعايته وعطفه، حيث تربى في بيته وساعده في أعماله التجارية، واصطحبه معه في تجارة إلى الشام وهو في الثانية عشرة من عمره، وقد تركت هذه الرحلة أثراً كبيراً فيه؛ فوسعت أفقه، وزادت من تجاربه. وتذكر المصادر أنه التقى في هذه الرحلة بالراهب بحيرى (سرجيوس) في بصرى الشام؛ الذي أوصى عمه به وحذره من خطر اليهود عليه، لما لمح فيه من سيماء النبوءة وعلاماتها، وهذا ما جعل عمه يتخوف من مرافقته له في رحلاته التالية(٢).

ج. زواجه من خديجة: شب الرسول ﷺ في مكة في رعاية عمه، واشتغل برعي الغنم، ثم تاجر في مال خديجة بنت خويلد بن أسد وهو لم يتجاوز العشرون سنة، فسافر بتجارتها إلى الشام وعاد بربح وفير زاد في ثقتها به وبأمانته وانتهى الأمر بزواجه منها عام٥٩٥م؛ وهي السيدة الشريفة ذات المكانة المميزة في مجتمعها. وتشير المصادر إلى أن زواجها منه قد تم بعد ما تأكد لها ما سمعته عنه من شرف ونزاهة إبان خروجه بتجارتها برفقة

خادمها ميسرة الذي قص على سيدته ما رآه من حسن أخلاقه وفطنته وتوقد ذهنه؛ مما حببه إلى نفسها وبالتالي دفعها إلى أن عرضت عليه الزواج منها، وكان في سن الخامسة والعشرين في حين كانت هي في الأربعين من عمرها.

أتاح الزواج لمحمد ﷺ تأسيس أسرة (حيث رزق من خديجة: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة والقاسم وبه كان يكنى والطاهر والطيب)؛ وأمن له الاستقرار المادي والاجتماعي، وكانت خديجة خير مساعد ونصير له في شبابه وأثناء نبوءته، وقد تحدث ﷺ عن ذلك بقوله: " آمنت بي حين كفر بي الناس وصدقتني حين كذبني الناس وأعطتني مالها حين حرمني الناس"(٣).

د. أخلاق وصفات الرسول ﷺ:

من خلال تتبع جميع مراحل حياة الرسول ﷺ نجد أنه اتصف بالخلق الطيب، والبعد عن الشبهات والخمر والميسر ومجالس اللهو مخالفاً عادات العرب في الجاهلية، وقد اشتهر بالصدق والأمانة ولهذا عرف بالأمين. وكان يكره عبادة الأصنام والأوثان وعرف عنه أنه لم يسجد لصنم قط تورعاً من الله تعالى ومقتاً للأصنام. وقد وصفه ابن كثير بأنه:" كان أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم حسباً، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال، تنزهاً وتكرماً"(٤).

هـ. مواقف في حياة الرسول ﷺ قبل بعثته:

١ ـ شهد حرب الفجار وهو في سن الرابعة عشرة، وكانت بين قريش وكنانة من جهة، وهوازن من جهة أخرى، وكان الرسول ﷺ يناول أعمامه السهام ويقاتل معهم، دفاعاً عن قداسة الأشهر الحرم وحرمة أرض الحرم، واستمرت هذه الحرب أربعة أعوام، ثم انتهت بالصلح بين الفريقين، وقد سميت بحرب الفجار لوقوعها في الأشهر الحرم، وهي خمس حروب اشتركت فيها تلك القبائل، ولكن الحرب التي شهدها الرسول ﷺ هي الحرب الرابعة.

٢ ـ شهد في العشرين من عمره عقد حلف الفضول الذي عقدته قريش مع بقية القبائل في دار عبد الله بن جُدْعَان التيمي بمكة؛ حيث تعاهدوا فيه على نصرة كل مظلوم بمكة سواء كان من أهلها أو من سائر الناس. وسمي بحلف الفضول لأنهم تحالفوا على رد الفضول إلى كل مقيم في مكة (تحالفوا على أن لا يتركوا بمكة مظلوماً يدعوهم إلى نصرته إلا أنجدوه حتى يردوا إليه مظلمته، وألاّ يتركوا لأحد عند أحد فضلاً إلا أخذوه)، وقد دخل هذا الحلف بنو هاشم والمطلب، وبنو أسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتميم بن مرة ولم يشترك فيه بنو عبد شمس وبنو نوفل بن عبد مناف، وقد تحدث ﷺ عن هذا الحلف بعد بعثته حيث قال: "

لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أُحِبُّ أن لي به حُمْرَ النَّعَمِ ولو أُدْعَى به في الإسلام لأَجَبْتُ". يستنتج من هذا القول عمق الأثر الذي تركه هذا الحلف في نفس الرسول ﷺ لأنه حلف إنساني يدعو إلى الخير ومكارم الأخلاق؛ ولكونه كان يهدف لمناصرة المظلوم على الظالم(٥).

٣ ــ عندما قامت قريش بترميم الكعبة عام ٦٠٣ــ ٦٠٥م، احتكم إليه العرب أثناء تنازعهم حول من ينال شرف وضع الحجر الأسود في مكانه؛ واستطاع بحكمته أن يسوي هذا التنافس القبلي بعد أن كاد الخلاف يؤدي إلى الاقتتال بينهم؛ بأن بسط ثوباً ووضع عليه الحجر الأسود، وطلب من زعامة الملأ (أرستقراطية قريش) حمله إلى الكعبة بأن يأخذ كل منهم بطرف من الرداء دلالة على وقوفهم جميعاً على قدم المساواة في نقل هذا الحجر الشريف، ثم قام بوضعه بيده في مكانه ثم بنى عليه(٦).

وهنا يمكن القول أن الرسول ﷺ شارك في الحياة الاقتصادية والاجتماعية لمكة، وكان مميزا بين قومه، وكانت قريش تنظر إليه في هذه المرحلة من حياته نظرة التقدير والاحترام، والأمل بمستقبل مشرق له ولأسرته.

و. بدء اعتزاله للحياة العامة وتعبده:

استناداً إلى روايات المؤرخين وبعض الآيات القرآنية، يستنتج أن مكة التي كانت أسواقها تشهد شتى أنواع المضاربات المالية، والمشاحنات والتجارية؛ كانت تعيش أنواعاً أخرى من الصراعات العقائدية ، الثقافية، التي أثرت بشكل فعال ومباشر على عقيدة البلد الوثنية، فرأى زعمائها ضرورة إحداث بعض التغييرات، فأعيد بناء الكعبة، وتم تهذيب بعض الطقوس والممارسات الخاصة بالحج؛ لكن هذا لم يحقق الغاية لأنه هدف بالأساس إلى زيادة أرباح طبقة الأغنياء وتقوية مراكز أفرادها، ولهذا تولد بين صفوف أهالي مكة تيار ينتقد وثنية قريش بشكل سافر، و يرفضها و يفتش عن بديل لها يصلح شؤون المجتمع ويغير العقيدة ويهذب العبادات ويملأ الفراغ الروحي الذي يعاني منه المجتمع.

وبسبب الخلاف الواقع بين اليهودية والمسيحية، الذي فهم منه أن هناك زيفاً ما قد أصاب هاتين الديانتين، فقد التمس عدد من رجالات قريش الحنيفية ديانة إبراهيم؛ الجد الأعلى لعرب الشمال وأهل الكتاب، والمنبع الذي جاءت منه اليهودية والنصرانية، وقد عمد هؤلاء إلى رفض عبادة الأوثان وأكل ما كان يذبح لها من قرابين، وسلكوا سبيل الانفراد والتعبد وعرفوا بالنساك وبالحنفاء.

ولم تعجب عبادة الأصنام الرسول ﷺ واعتقد كغيره بانحطاط الوثنية وبضرورة إحداث إصلاح الواقع، وقد تأثر بتيار الحنفاء، وأخذ يبحث عن دين إبراهيم وصار يخلو بنفسه للتأمل والتفكر في الكون وخالقه في غار حراء، خارج مكة، ودعيت هذه الخلوات من قبل المؤرخين

باسم التحنث والتحنف (حيث قام العرب بقلب حرف الفاء ثاء في بعض الأحيان)، وهذا يعني الخروج من الضلالة وإثمها إلى حنيفية إبراهيم.

استمر محمد ﷺ في اعتزاله وتعبده حوالي الخمس سنوات، حيث صقلت الخلوات نفسه وأعدته روحياً لتلقي الوحي الذي جاءه وهو في الأربعين من العمر، وأبلغه جبريل رسالة الله سبحانه تعالى بأنه رسول الله وخاتم أنبيائه (٧).

٢ــ محمد والبعثة:

تتفق معظم الروايات أن الوحي بدأ يتنزل على محمد ﷺ حين بلغ الأربعين من عمره في شهر رمضان عام ٦١٠م، حيث جاءه جبريل وبلغه أنه رسول الله إلى قومه والبشرية جمعاء، وأنه خاتم الأنبياء والرسل. وعلى الرغم من أن القرآن الكريم لا يشير إلى السن الذي تنزل فيه الوحي على الرسولﷺ، فإن ما هو مذكور فيه من عد سن الأربعين سن النضج والكمال يعطي سبباً مقنعاً مع ما هو معروف ومقبول، أن بدء الوحي كان ومحمد في الأربعين من عمره.

ويتفق جميع الرواة أن محمداًﷺ كان قبل أن يوحى إليه يتحنث في غار حراء، فيبقى فيه أمداً منقطعاً للتأمل والعبادة، ويتحدث ابن شهاب الزهري في رواية كاملة، ينقلها عن عروته، عن السيدة عائشة، عن بدء الوحي وسلوك الرسولﷺ نحوه فيقول: ".. عن عروة عن عائشة أنها قالت: كان أول ما ابتدئ به رسول اللهﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة، كانت تجيء مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء. فكان بغار حراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، فيتزود لمثلها، حتى فاجئه الحق، فأتاه، فقال: يا محمد، أنت رسول الله! قال رسول الله ﷺ : فجثوت لركبتي وأنا قائم، ثم زحفت ترجف بوادري، ثم دخلت على خديجة، فقلت: زملوني، زملوني! حتى ذهب عني الروع، ثم أتاني فقال: يا محمد أنت رسول الله. قال: فلقد هممت أن أطرح نفسي من حالق من جبل، فتبدى لي حين هممت بذلك، فقال: يا محمد، أنا جبريل وأنت رسول الله، ثم قال: اقرأ، قلت: ما أقرأ؟ قال فأخذني فغتني ثلاث مرات، حتى بلغ مني الجهد، ثم قال: اقرأ باسم ربك الذي خلق، فقرأت. فأتيت خديجة فقلت: لقد أشفقت على نفسي ، فأخبرتها خبري، فقالت: أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتُحَمِّل الكَلَّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقت بي إلى ورقة بن نوفل بن أسد، قالت اسمع من ابن أخيك، فسألني فأخبرته خبري، فقال: هذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران، ليتني فيها جَذَعٌ، ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك. قلت: أمخرجيَّ هم؟ قال: نعم، إنه لم يجيء رجل قط بما جئت به إلا عودي، ولئن أدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم كان أول ما نزل علي من القرآن بعد "اقرأ"، نون والقلم وما يسطرون... ويا أيها المدثر... والضحى...".

ويتابع الزهري، رواية عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فيذكر ما جرى للرسول بعد ذلك، فيقول: " فتر الوحي عن رسول الله ﷺ مدة، فحزن حزناً شديداً، جعل يغدوا إلى رؤوس الجبال ليتردى منها، فكلما أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل، فيقول إنك نبي الله، فيسكن لذلك جأشه، وترجع إليه نفسه،فكان النبي ﷺ يحدث عن ذلك، قال: فبينما أنا أمشي يوماً، إذ رأيت الملك الذي كان يأتيني بحراء على كرسي بين السماء والأرض فجئثت منه فرقاً، فرجعت إلى خديجة، فقلت زملوني، فزملناه، أي دثرناه، فأنزل الله عز وجل: يا أيها المدثر... قال الزهري: فكان أول شيء أنزل عليه: إقرأ باسم ربك الذي خلق، حتى بلغ: ما لم يعلم. " .

تعد رواية الزهري هذه رواية كاملة لبدء الوحي وكيفية نزوله على الرسول الأمين، على أنه يوجد إلى جانبها روايات أخرى تروي هذا الحادث المهم في حياة محمد ﷺ ومقدماته وكيفية حصوله بشيء من الاختلاف ببعض التفاصيل (٨).

وهنا نجد حكمة الله عز وجل البالغة في اختيار الجزيرة العربية لتنطلق منها الدعوة الإسلامية إلى العالم، وذلك للأسباب التالية:

أ ــ موقع الجزيرة العربية المتوسط بين آسية وإفريقية وأوروبة.

ب ــ كون الأمة العربية في القرن السادس الميلادي لا زالت مهابة الجانب حامية الدم لم تفسدها فسولة الحضارة وانتشار الترف الذي أصاب الأمم الأخرى، فالعرب كانوا شجعاناً، يعشقون الحرية والاستقلال، أحرار الفكر، كرماء وموفين بالعهد، مستمتون في الذود عن أعراضهم رغم بعض العادات الجاهلية السيئة والمنكرات التي كانت فيهم.

ج ــ أهمية اللغة العربية في تبليغ الرسالة، كونها أنسب لغة لأداء الأفكار السامية والإفصاح عن أدق معاني العلم الإلهي؛ التي تحتاجها معاني القرآن الكريم.

د ــ ظهور الدعوة على يد رجل من قريش التي عرفت بثرائها وقوتها، ووقوفها ضده يؤكد سلامة الرسالة حيث أن صاحبها لا يطلب جاهاً ولا سلطاناً، ولكن صاحب دعوة حق تنادي بوحدانية الله والعبودية له وحده جل جلاله، ولم يتخل عن دينه الجديد.

هـ ــ لم يكن في مكة رجال دين أو لنقل دين منظم؛ ولم تكن شبه الجزيرة في الشمال خاضعة لواحدة من الديانات الكبرى: اليهودية والمسيحية والزرادشتية، لذلك سوف يتمتع الإسلام بالاستقلال الكامل.

مجمل هذه الأسباب ساهمت في انطلاق الدعوة الإسلامية للبشرية على يد محمد ﷺ، الذي استطاع أن يؤسس الجماعة الإسلامية الأولى في مكة ثم نشرها في أنحاء الجزيرة العربية، حيث وضعت الرسالة الإسلامية حداً لعصر الجاهلية، وفتحت عصراً جديداً للعرب هو عصر الإسلام؛ ليس لهم وحدهم بل للعالم أجمع.

٣ــ المرحلة السرية وأوائل المسلمين:

استمر الوحي بالنزول على الرسول ﷺ يبلغه رسالات ربه بأشكال عدة؛ وما أن ترسخت معالم النبوة في نفسه حتى بدأ يبشر بما جاءه من عند الله، ويبدأ بالمقربين إليه فكانت زوجته خديجة أول من أسلم وآمن به من الناس، ثم أقرباءه وأصدقاءه كعلي بن أبي طالب، وأبي بكر الصديق، وزيد بن حارثة، ثم تلاهم عدد من رجالات قريش المتميزين مثل: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، ثم أسلمت دفعة ثالثة ضمت أشخاصاً من سوية أبي عبيدة بن الجراح، وأبي سلمه، والأرقم بن الأرقم، وعبيدة بن الحارث، وعثمان بن مظعون، وفاطمة بنت الخطاب(أخت عمر)، وأسماء بنت أبي بكر، وأختها عائشة، .. وغيرهم.

وكان هؤلاء هم السباقون إلى الإسلام وهم من جميع بطون قريش، ومن ذوي المكانة التي تثير الاهتمام لوضعها المالي والاجتماعي. وكان الرسول ﷺ يجتمع بهم ويرشدهم إلى الدين متخفياً في دار الأرقم بن الأرقم بن عبد مناف المخزومي في مكة، وأسلم في هذه الدار جماعة كثر من قريش وغيرها. وكان المسلمون يمارسون شعائرهم الدينية وصلواتهم في شعاب مكة بعيداً عن أعين قريش(٩). واقتصرت دعوته في هذه المرحلة على من كان يثق بهم ويطمئن إلى استعدادهم النفسي لقبول الإسلام ــ وكانوا في الغالب لا ينتمون إلى فئة كبار التجار وأصحاب الأموال ــ بل وممن ساءتهم أحوال مجتمعهم ورأوا أن الامتيازات التي يتمتع بها رجالات الأرستقراطية العليا في المجتمع المكي واستغلالهم الخيرات وحصرها بأشخاصهم؛ تتنافى مع مبادئ الحق والعدل والتوحيد التي نادى بها الإسلام، التي وجدوا فيها ما يتجاوب وما في أنفسهم؛ فتقبلوه وناصروه وتفانوا في سبيله.

٤ــ إعلان الدعوة إلى الإسلام:

استمرت الرسالة سرية لمدة ثلاث سنوات؛ وبعدها تنزل أمر الله بوجوب نقل الدعوة من السر إلى العلنية بقوله تعالى: ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾(١٠). وفي قوله تعالى : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ (١١). فقام ﷺ باستشارة أصحابه الذين آمنوا به، ثم دعا بني عبد المطلب وقال لهم:" يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة. ثم نادى على بطون قريش كل باسمه من جبل الصفا بظاهر مكة، ولما اجتمعوا إليه قال لهم: " إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة، ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا لا إله إلا الله، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصي وخليفتي فيكم؟" فأحجم القوم عنه جميعاً فنهض علي بن أبي طالب وهو أصغرهم سناً وقال:" أنا يا رسول الله عونك أنا حرب على من حاربت. وكان بين الحضور عمه أبو لهب فقال له: " تباً لك سائر اليوم

ألهذا جمعتنا؟. فأنزل الله فيه الآية: ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب* ما أغنى عنه ماله وما كسب* سيصلى ناراً ذات لهب* وامرأته حمالة الحطب* في جيدها حبل من مسد﴾(١٢).

٥ــ موقف قريش من المسلمين:

لم تبتعد قريش عن محمد ﷺ ولم تعلن عداوتها للإسلام أو محاربته في أول الأمر؛ لكن موقفها انقلب هجومياً وحربياً ، بعد أن عاب الله آلهتهم التي كانوا يعبدونها دونه، وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر،﴿إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً، فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون﴾(١٣)، ﴿ أتعبدون ما تنحتون * والله خلقكم وما تعلمون ﴾(١٤). هنا أجمعت قريش على الكيد له وإيذائه، وتوجهت جماعة منهم إلى عمه أبي طالب وطلبت منه أن يكف ابن أخيه عن قريش أو أن يخلي بينها وبينه؛ فردهم أبو طالب رداً حسناً، ووعدهم بمخاطبة الرسول ﷺ في ذلك(١٥).

ثم زادت الدعوة بثورتها، حيث تتابع نزول سور القرآن الكريم معلنة ثورة اجتماعية دينية ضد الاتجاهات القبلية ونظمها ومؤسساتها التي تركزت في مكة، وداعية إلى إقرار نظم جديدة، وبناء مجتمع متحرر من النظرة القبلية الضيقة، يقوم على أساس العدالة العالمية واستمر الرسول ﷺ مصمماً على إعلان دعوته للإيمان بالله، ونبذ عبادة الأصنام، وترك الشرك بالله، وبشر بيوم الحساب، وركز على المساواة بين الناس دون تمييز بين عرق ولون، وغني وفقير، داعياً إلى وقف الاستغلال، وإبطال الربا، والامتناع عن الغش وغير ذلك من العادات الجاهلية المنافية للإنسانية، كل هذا أدى إلى بلورة العديد من الدوافع لدى قريش للتصدي لمحمد ﷺ ومقاومة دعوته والتي يمكن إجمالها بما يلي:

أ ــ إن هذه الرسالة أتت بالتوحيد، مما جعل قريش تفكر بخسارة مكانتها وسيادتها لصالح صاحب هذه الدعوة ولبني عبد المطلب، ذلك أنهم لم يدركوا الفرق بين النبوة من جهة؛ والسيادة والملك من جهة أخرى.

ب ــ جاء الإسلام ليحارب عبادة الأوثان ومعتقدات العرب الوثنية التي يتعيشون ويكتسبون من ورائها مادياً، وبالتالي فإن نجاح الدعوة الإسلامية سوف يفقدهم مكانتهم الدينية في الجزيرة العربية.

ج ــ تمسك العرب بتقاليد الآباء واتباع سلوكهم في العبادات والمعاملات، لهذا صعب عليهم أن يخرجوا عن دين آبائهم، فقاوموا الإسلام ولم يصدقوا بالبعث وسخروا من الحساب يوم القيامة، ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾(١٦).

د ــ مناداة الإسلام بالمساواة، فلا فرق بين سيد وعبد إلا بالتقوى، وهذا يعني إلغاء العديد من العادات والتقاليد التي ألفها الناس وطبقوها؛ فضلاً عن إقامة عصبية الإيمان مكان عصبية

الدم، مما يعني أن الذي يجمع هو الدين لا الدم؛ ومن غير الممكن أن تقتنع قريش بأن يصبح العبيد أخوة للسادة لهم ما لهم وعليهم وما عليهم .

هـ ـ تحريم الإسلام للرق وتجارة الرقيق التي تعد تجارة رابحة لهم من جهة، ومن جهة أخرى عدّ سادة مكة دخول بعض العبيد الإسلام تمرداً عليهم وبالتالي فمحمد ﷺ مثير للفتن ضدهم. ومسبب في زعزعة زعامة قريش السياسية والدينية، وهذا ما لايمكن أن تقبل به ؛ على الرغم من أن القرآن الكريم يؤكد في أكثر من مناسبة أن الرسول ﷺ لم يكن يقصد زعامة أو رئاسة؛ وعندما منّوه بتوليته الملك عليهم إذا كف عن دعوته وعن مهاجمة أوثانهم، رد عليهم بقوله:" إن الله بعثني رسولاً، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم. فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر حتى يحكم الله بيني وبينكم"، وجاء القرآن الكريم تأكيداً على ذلك: ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودّة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور ﴾(١٧).

للأسباب المتقدمة قاومت أرستقراطية مكة الرسول ﷺ ومن معه مقاومة شديدة زادتهم إيماناً بالدعوة الجديدة. وتحمل المسلمون الأوائل كل صنوف العذاب والهوان التي مارسها الزعماء القرشيون ضدهم.

٦ـ أساليب المقاومة القرشية للدعوة الإسلامية:

لقد اختلفت أساليب مقاومة الزعامة القرشية وتدرجت مع تعاظم الدعوة الإسلامية وانتشارها، وثبات المسلمين وتمسكهم بدينهم:

أ. دعوة محمد ﷺ إلى العدول عن هذه الدعوة.

ب. استهانت قريش بالرسول ﷺ ودعوته وقالت إن هذا ليس إلا من أساطير الأولين، واعتقدت أن محمداً لا يعدو أن يكون واحداً من ثلاثة: إما كاهن يتوهم الحق توهماً؛ وإما شاعر يهيم في أودية الخيال؛ وإما أفّاق من أولئك الذين تضطرب عقولهم.

ج . شككت قريش في نبوة محمد ﷺ ودعوته وقالت:" ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق"، كما شكّت فيما أنزل عليه من القرآن وقالت:" إنه ليس من عند الله؛ وإنما يستمليه ممن يجالسهم من أهل الكتاب.

د. حاولت أرستقراطية قريش إبعاد الناس عن دعوة الرسول ﷺ، وتجلى ذلك بظهور جماعة "المقتسمين" الذين اقتسموا طرق مكة محاولين صد الناس عن الإسلام، والإقلال من شأنه وتحقيره. ويقال إن المقتسمين كانوا سبعة عشر رجلاً من قريش؛ اقتسموا أعقاب مكة، فكانوا إذا حضر الموسم يصدون الناس عن الرسول ﷺ. وتقول

المصادر إن الرسول (ص) حين علم بأمر المقتسمين أخذ يرسل شخصاً من أصحابه يقف إلى جانب الشخص الكافر ليقوم بالدفاع عن الإسلام وتفنيد أكاذيب الكافر.

هـ. عندما وجدت قريش أن أسلوبها هذا لم يجد نفعاً في الحد من انتشار الدعوة الإسلامية ، لجأت إلى الضغط على النبي محمد ﷺ حيث حاولت تفريق صفوف بني هاشم؛ بغية عزل محمد عن أقاربه والانفراد به وتجلى ذلك في محاولة قريش جذب أبي طالب عم الرسول ﷺ وسحب حمايته لابن أخيه، فقد طلبت منه أن يقنع ابن أخيه بأن يكف عن سب آلهة قريش وتسفيه أحلامهم، وكان من أبو طالب أن ردهم بالحسنى، ولكن النبي محمد ﷺ لم يجبه ولم يتوقف عن نشاطه أو يتهاون في أمر دينه، عندها أعاد القرشيون الاتصال بأبي طالب وأنذروه: إذا لم يتوقف محمد ﷺ عن سب آلهتهم ودينهم فإنهم سيعلنون عليهما حرباً، حتى يهلك أحد الطرفين. وقد عظم هذا التهديد على أبي طالب، وأرسل إلى محمد ﷺ وأخبره بما تطلب قريش منه وقال له: فابق علي وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق. وظن الرسول ﷺ أن عمه قد ضعف عن نصرته وأنه مسلمه إلى قومه،[فقال له قوله المشهور :" يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته." ، ثم بكى وقام فلما ولى ناداه أبو طالب وقال له: " اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك أبداً"]. على أن قريش نجحت في جذب أبي لهب وفصله عن الصف الهاشمي الذي مثلت مصالحه المادية والتجارية عاملاً قوياً في انحيازه إلى جانب أرستقراطية قريش.

و. حاولت أرستقراطية قريش مساومة الرسول ﷺ لتعرف أهدافه، فبعثت إليه سيداً من ساداتها وهو عتبة بن ربيعة الذي قال له: إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً؛ وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا. ولكن هذه المحاولة أخفقت وعاد خائباً.

ز. أرسلت زعامة قريش بعض المشركين ــ من عرفوا بالمنافقين ــ لإعلان إسلامهم وليعملوا على الكيد للإسلام من داخله وتفريق صفوف المسلمين وإدخال الشك في الدين الجديد إلى قلوبهم.

ح. انتقلت زعامة قريش بعد ذلك إلى استخدام القوة ضد الرسول ﷺ وإيذائه، واضطهاد المسلمين وتعذيبهم؛ فقد كانوا يضعون الشوك في طريقه ويلقون عليه التراب، وتآمروا عليه أكثر من مرة وهموا بقتله، كما عانى من الاضطهاد والتعذيب معظم

من أسلم ورفض العودة إلى دينهم القديم؛ وأبرز هؤلاء بلال الحبشي وعمار بن ياسر و أبو بكر الصديق وعثمان بن عفان...رضي الله عنهم جميعاً.

ط. عندما رأت قريش أن كل وسائلها مع الرسول ﷺ (المسالمة، الإغراء، السخرية والاستهزاء، الإرهاب والتعذيب، الدعاية والتهويش...) لم تجد نفعاً؛ لجأت إلى أسلوب الضغط الاقتصادي على بعض المسلمين ذوي النفوذ والثروة، وذلك تنفيذاً لتهديد أبي جهل المتمثل بتعطيل وإهلاك تجارة وأموال كل من يسلم. وبدأت المقاطعة القرشية لبني هاشم وبني المطلب، وجميع المسلمين.

٧ــ الهجرة إلى الحبشة ٦١٥م:

نتيجة لعداء قريش وكيدها المستمر للرسولﷺ وللمسلمين، أشفق ﷺ على أتباعه من التعذيب وقرر إخراج المستضعفين منهم من مكة إلى بلدة أخرى؛ وكان اختياره للحبشة (السودان الحالي قرب النيل الأزرق) الذي لم يكن عفوياً؛ بل جاء نتيجة تدبير وتفكير سليمين من الرسول ﷺ ، إذ مثلت الهجرة إلى الحبشة مرحلة تكتيكية جديدة؛ فقد حاول الرسول ﷺ أن يجنب أتباعه الذل والتعذيب، وربما الارتداد عن الإسلام، وأن يدب العطف في قلوب الناس في مكة؛ لكي يتعاطفوا مع الذين هجروا ديارهم مكرهين مظلومين فقط لأنهم تمسكوا بدينهم (الإسلام). وقد ناقش موضوع الهجرة إلى الحبشة ــ تحديداً ــ العديد من المؤرخين والباحثة؛ استناداً للعديد من المصادر، وردوها لعوامل كثيرة أهمها:

أ. إن اليمن خاضعة للفرس الذين لا يعتنقون الأديان السماوية، فلا تصلح لهجرة المسلمين.

ب. كثير من مواطن أهل الكتاب في الجزيرة العربية في نزاع مستمر، وهم لا يقبلون منافساً جديداً.

ج. تم استبعاد بلاد الشام، والحيرة(العراق)، التي لها صلات قوية بقريش بسبب العلاقات التجارية مما جعل لها نفوذاً كبيراً فيهما، يستحيل معه هجرة المسلمين إليها، كما يوجد بها حكم الروم والفرس الذي لن يسمح بتأييد الدعوة الإسلامية الجديدة، عدا عن أنه كان ﷺ يعرف أنه في المستقبل سوف يتم نشر الدعوة الإسلامية باتجاه هذه المناطق، وبالتالي فلا يمكن أن يطلب من الفرس أو من الروم ــ الذين يمثلون أسوأ أنواع الحكم آنذاك ــ أن يجيروا المسلمين في هذه المرحلة، لأن الصدام معهم سيكون محتوماً في المستقبل؛ وهذا يتنافى مع أخلاق الرسول ﷺ التي تنادي بالوفاء ورد الجميل، ومقابلة الإحسان بالإحسان والمعروف.

د. رغبة الرسول ﷺ في نشر الإسلام خارج الجزيرة العربية .

هـ. انعدام وجود مدينة أخرى لاستقبالهم في الجزيرة العربية.

و . وجود العنصر الأسود في الحبشة، وفي هذا انسجام مع الدعوة الإسلامية التي جاءت لتحرير الإنسانية وضمان المساواة بين الجميع.

ز. عدم وجود علاقات أو مصالح يخشى منها بين الحبشة وقريش؛ ذلك أن علاقات المكيين ومن بينها التجارية خفت مع الحبشة إثر حملة أبرهة الأشرم.

ح. معرفة العرب المسلمين بالحبشة وقربها من سواحل جدة، إضافة إلى أنها لا تقع تحت سلطة دولة كبيرة أو إمبراطورية، بل تحت إدارة زعيم قبلي محلي (النجاشي)، يدين بالمسيحية بشكل سطحي، ومعروف بالعدل والتسامح.

ط. رغبة الرسول ﷺ في إرسال المسلمين إلى جو غير وثني، والحبشة على النصرانية آنذاك.

ي. إثارة عواطف القبائل العربية تجاه المهاجرين من المسلمين.

ك. وقد أسهمت المتغيرات الدولية آنذاك، دوراً مهماً في اختيار الحبشة؛ حيث أن قريش على الرغم من حيادها بين القوى الكبرى المتصارعة آنذاك كانت تتاجر مع الفرس الذين حكموا اليمن واحتلوا سورية وفلسطين ومصر وانتزعوها من البيزنطيين منذ أواسط القرن السادس الميلادي إلى زمن هرقل. وقد أغضب هذا العمل بيزنطة وعدته خيانة من قريش لمصالحها التجارية. وحرص الرسول ﷺ أن لا يعيش هو وأصحابه في ظل مؤثرات دينية فعالة، أو سياسية نافذة، لذلك اختار منطقة من البلاد المستعربة، ليست بعيدة ونائية في ذات الوقت عن الصراعات الدولية.

وقد ناقش المستشرق مونتجومري وات في كتابه " محمد في مكة " الأسباب التي دعت الرسول ﷺ إلى حث المسلمين على الهجرة فأورد عدة افتراضات تضمنت معظمها المعلومات التي سلف ذكرها(١٩).

استجاب بعض المسلمين لنصيحة الرسول ﷺ هذه، فخرجوا في شهر رجب من السنة الخامسة لمبعث الرسول ﷺ، متسللين سراً إلى الحبشة على دفعتين: عدد أفراد الدفعة الأولى أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، وكان قد سبقهم عثمان بن عفان ﷺ ومعه زوجته رقية ابنة الرسول ﷺ وتتابعت هجرة المسلمين في عدة أفواج حتى بلغت تعدادهم ثلاثة وثمانين رجلاً، وثمان عشرة من النساء.

وقد اضطربت قريش حين علمت بأمر هذه الهجرة، وفهم زعمائها أبعاد سياسة محمد ﷺ حول إرسال المهاجرين إلى الحبشة، فأرسلت في أثرهم عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص محملين بالهدايا للنجاشي، طالبين منه عودة هؤلاء المسلمين لكي يلقوا جزاءهم على ما فعلوا. وأمام النجاشي عقدت مناظرة بين الطرفين ، بيّن فيها جعفر بن أبي طالب ﷺ الأسس

التي يرتكز عليها المجتمع الإسلامي؛ حيث تجاوب النجاشي مع أفكاره وقال بعد أن تلا عليه جعفر بعض الآيات من سورة مريم: "إن هذا والذي جاء به عيسى بن مريم يخرج من مشكاة واحدة وإن رسالة الإسلام تلتقي مع رسالة المسيح وإنها من نفس مصدرها"، وبذلك تم حماية النجاشي للمسلمين، وظلوا آمنين في ظله حتى طلب منه الرسول ﷺ ـــ بعد أن استقر له الأمر في المدينة ـــ أن يسمح لهم بالعودة إلى وطنهم، فأذن لهم بمغادرة بلاده فعاد كثير منهم وظل بعضهم مقيماً في الحبشة إلى أن عادت آخر دفعة منهم في السنة السابعة للهجرة (٢٠). وعاد وفد قريش خائباً.

ولا شك في أنه كان لهذه الهجرة أثر كبير في نشر الإسلام وترغيب الناس فيه، فقد ذاع بين العرب أن فريقاً من القرشيين هاجروا إلى الحبشة فراراً بدين تلقوه عن نبي مكة، وبذلك سمع عن الدين الإسلامي من لم يسمع به من قبل، كما أنه كان لخروج هذه الجماعة أثر في تخفيف حدة عداء قومهم، إذ رأوا فريقاً مضطهداً، أوذي في دينه حتى اضطر أن يهاجر به إلى مكان بعيد، يضاف إلى هذا أن الهجرة كانت برهان مبكر على عالمية الإسلام، حيث نجح المهاجرون في نشر الإسلام في ديار النجاشي.

٨ـــ مقاطعة قريش للرسول ﷺ وأتباعه:

وبينما كان هناك فريق من المسلمين مهاجراً في الحبشة، ظل الرسول ﷺ مقيماً في مكة يدعو إلى الله، معرضاً نفسه لعداوة قريش، وكان أكثر القرشيين عداوة له: من قريش أعمامه أبو جهل بن هشام بن المغيرة وعمه أبو لهب عبد العزى ابن عبد المطلب، وعقبة بن أبي معيط.

ما أن علمت قريش إكرام النجاشي للمسلمين، ثم إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب ـــ الذين أعز الله بهما المسلمين وصاروا يقيمون الصلاة عند الكعبة؛ ويجهروا بتلاوة القرآن الكريم ـــ ودخول كثير من أهل مكة الإسلام اقتداءً بهم؛ بدأت تفكر بطرق جديدة لمقاومة محمد ﷺ، فاستعانت عليه بأحبار اليهود في يثرب، ودفعتهم لمحادثته وحواره، لإحراجه والاستهزاء به وبرسالته، وخرج محمد ﷺ منتصراً على محاولاتهم، فما كان من قريش إلا أن خرجت بإجراء جديد، حيث أقدمت على مقاطعة وحصار بني هاشم وبني المطلب وكل المسلمين، في شعب أبي طالب، وحرم التعامل معهم جميعاً بحيث لا يزوجوهم ولا يتزوجوا منهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم، وكتبوا ذلك في صحيفة علقت في جوف الكعبة، وطبقت المقاطعة بقسوة ووحشية وأدت إلى قطع كل المؤن عن بني هاشم والمطلب الذين اضطروا إلى أكل ورق الشجر، وكان يمكن سماع أصوات صغارهم الجائعين نتيجة الحصار، فكانوا لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم، ولا يصل إليهم القوت الضروري إلا خفية.

واستمر حالهم هذا ثلاث سنوات، وجدت قريش بعدها أنها لم تحقق هدفها من المقاطعة، كما أن جمع من قريش ألمهم عناء المحاصرين فقرروا في اجتماع سري العمل على وقف العمل بالصحيفة؛ ومن ثم إعلان إنهاء المقاطعة بشكل رسمي. وقد احتمل بنو هاشم وبني المطلب، المحنة وخرجوا منها كراماً معززين. وهكذا صمد الرسول ﷺ وأصحابه لكل الأساليب ووقفوا بثبات أمام أساليب قريش وعنادها ومقاومتها للدعوة الإسلامية.

٩ــ نتائج مقاطعة قريش للرسول ﷺ:

بعد انتهاء المقاطعة بوقت يسير فقد الرسول ﷺ عمه أبو طالب وزوجته خديجة؛ فتألم لفقدهما في عام واحد وسماه عام الحزن، واشتد أذى قريش له بعد وفاة عمه. حتى قال: " ما نالت قريش مني شيء أكرهه حتى مات أبو طالب"؛ ذلك أنه لم يكن في عشيرته وأعمامه حامياً له ولا مدافعاً عنه غيره . عندها فكر الرسول ﷺ في أن يعيد النظر في برنامج دعوته حتى يكسب لها أنصاراً جدداً فاتبع عدة طرق عله يصل إلى هدفه حيث قام بما يلي: (٢١).

أ ــ الرحلة إلى الطائف:

بعد أن وصل أذى مشركي قريش إلى هذه الدرجة، رأى الرسول ﷺ أن يلجأ إلى بلد آخر غير مكة، ينشر فيه دعوته، فخرج إلى الطائف برفقة مولاه زيد بن حارثة يلتمس مناصرة ثقيف ــ لأنهم كانوا أخواله ــ ويدعوهم إلى عبادة الله، علها تحميه من أذى قريش وتمنع عنه الاضطهاد.

وعلى الرغم من أن الطائف أصغر من مكة، إلا أنها كانت على مكانة تجارية بالغة الأهمية؛ فضلاً عن اعتدال مناخها وخصوبة أرضها. وكان يسكن الطائف بنو ثقيف، وكان هؤلاء ينقسمون إلى تكتلين سياسيين وهما: بنو مالك (حلفاء بني هوازن) والأحلاف(حلفاء قريش) .

فأقام بالطائف عشرة أيام، اتصل خلالها بعدد من أشراف الأحلاف، وطلب منهم نصرته والقيام معه على من خالفه، فلم يجيبوه، وخافوا أن يتأثر به أحداثهم فطلبوا منه الخروج من بلدهم، وسلطوا عليه سفهائهم الذين شتموه ورموه بالحجارة، وانصرف عائداً إلى مكة دون أن يستجيب له أحد، إلا أنه طلب منهم أن يكتموا أمر قدومه عن قريش حتى لا تتخذ من ذلك ذريعة للتمادي في عداوته.

ولما وصل الرسول ﷺ إلى حراء عائداً من الطائف، بعث رجلاً من خزاعة إلى المطعم ابن عدي ليجيره حتى يبلغ رسالة ربه، فأجاره ودخل الرسول ﷺ مكة وعاود ينشر الإسلام بين أهلها.

وفي هذا العام أيضاً أسرى الله بنبيه محمد ﷺ من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس، وعرج في هذه الليلة إلى السماء. يقول الله تعالى:" سبحان الذي أسرى

بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير"(٢٠٢)، وجاء الإسراء هدى ورحمة لمن آمن به، وتخفيفاً عن النبي ﷺ بعد وفاة أعظم مدافعين عنه (أبو طالب وزوجته خديجة). ومع ذلك فقد عدّ هذا العام من أشق أعوام دعوته؛ إذ إجترأ عليه سفهاء قريش ونالوا منه بإيذائهم له(٢٣).

ب ــ الاتصال بالقبائل العربية في المواسم:

بعد عودة الرسول ﷺ من الطائف، وجد أن قريشاً لا زالت أشد إصراراً على مقاومته، ولهذا قرر الاتصال بالقبائل العربية، في منازلها وأثناء مواسم الحج والأسواق. وقد قدم الرسول ﷺ نفسه إلى قبائل: بنو عامر وغسان وبنو فزارة، وبنو مرة، وبنو حنيفة، وبنو سُلَيم، وبنو عبس،وبنو نصر، وكندة، وكلب، وبنو عُذْرة...، فلم يستجب له أحد، وتفاوتت ردودهم بين الرفض والمساومة والشتم، وطلب مهلة للتفكير... . على أية حال وبصرف النظر عن نتائج اتصاله بالقبائل العربية، فإن هذا يدل على هدف الدين الجديد في توحيد القبائل العربية تحت جناح الإسلام؛ وإزالة ما بينها من فتن وخلافات(٢٤).

ج ــ التوجه للقاء الحجاج القادمين إلى مكة :

بعد أن أخفقت محاولات الرسول ﷺ في نشر الدعوة الإسلامية، لم ييأس؛ بل تابع محاولاته عن طريق دعوة الحجاج القادمين إلى مكة، ويذكر أن أبا لهب كان يتتبع الرسول ﷺ في جولاته؛ فما يكاد ﷺ ينتهي من شرح أصول الإسلام ويبين تعاليمه لإحدى القبائل؛ حتى يقف أبو لهب ويقول للناس: يا بني فلان، إن هذا يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه!. وكان النبي ﷺ يرجو من هذا أن يجد قوماً لهم قوة ومنعة حتى يحتمي بهم من أعدائه ليتمكن من نشر دعوته.

وقد ساهمت محاربة قريش للدعوة الجديدة، في جعل القادمين إلى مكة يلتفتون إلى الدعوة ولو من باب حب الاستطلاع، ليتعرفوا على صاحبها وأسباب مقاومة قريش لها، وعن طريق هؤلاء الحجاج تم تناقل أخبار الدعوة الإسلامية خارج مكة وانتشرت في كافة أرجاء الجزيرة العربية(٢٥).

١٠ ــ الرسول ﷺ وأهالي يثرب :

أ ــ أحوال يثرب الداخلية قبل الإسلام :

كانت قبائل الأوس والخزرج من عرب الجنوب التي تسكن في يثرب، إلى جانب ثلاث عشائر تدين باليهودية وهي: بنو قريظة وبنو قينقاع وبنو النضير، وقد أقامت هذه القبائل في الجزء الخصب من أرض يثرب، إلاّ أنه كثيراً ما وقع القتال بين الطرفين بتحريض من المسيحيين المقيمين في بلاد الشام، فقد كان المسيحيون يبغضون اليهود أشد البغض، لاعتقادهم أنهم صلبوا المسيح عليه السلام، وقد أغاروا أكثر من مرة على يثرب

مستهدفين إخضاع اليهود، فلم يظفروا بهم، ففكروا بالاستعانة برجال الأوس والخزرج بعد أن كانوا أجراء عند اليهود، ولم ينس اليهود ما حدث لهم، فأخذوا يدسون بين الأوس والخزرج للإيقاع بينهم حتى أفلحوا في غرس العداوة والبغضاء بينهم.

من هنا نجد أن يثرب كانت تعيش أزمات كثيرة قبيل البعثة النبوية، وفي مقدمتها:

١ ـ أزمة سياسية: وتجلت هذه الأزمة بالمنازعات بين الأوس و الخزرج، والحروب التي لم تهدأ ثائرتها ولم تنطفئ نارها بينهم. والتي كان آخرها يوم بعاث قبل الهجرة بسنوات قلائل، الذي أوجد لدى القبائل العربية في يثرب ميلاً إلى تولية عبد الله بن أُبيّ ابن أبي سلول الخزرجي.

٢ ـ أزمة دينية: إن وجود ديانة سماوية لها كتاب منزل من عند الله؛ فيها ذكر للوحي، ووحدانية الله وعظمته وقدرته، والبعث والحساب، وما بعدهما من جنة ونار... . لهذا كله من الأثر ما أضعف الوثنية في نفوس العرب النازلين بيثرب وجعلهم أقدر على فهم دعوى نبوة محمد من أهل مكة الوثنيين.

٣ ـ أزمة اقتصادية: وسببها ازدياد مستمر في عدد السكان لا يجاريه ازدياد مماثل في المواد التموينية، كما أن الحروب التي كانت تندلع بين سكان يثرب، كانت تؤدي إلى احتلال المنتصرين أرض المغلوبين.

٤ ـ أزمة اجتماعية: وسببها سيادة العصبية القبلية التي تشكل أساس العلاقات بين أفراد المجتمع، الذي كانت تسوده العادات الجاهلية كالثأر والدية والتي تقتضي معالجتها مسؤولية جماعية يفرضها التضامن القبلي، وفي هذا الكثير من الصعوبة في مجتمع محدود كمدينة يثرب؛ لأن مجالات الصدام يومية ومتكررة.

وكان الأوس و الخزرج قد سمعوا من يهود يثرب(بني قريظة وبني النضير) أن نبياً سيبعث وكانوا يتوعدونهم به إذا حاربوهم، فلما قدموا لزيارة البيت الحرام ، رأوا الرسول ﷺ يدعوا الناس إلى الله فلاحظوا أمارات الصدق لائحة عليه؛ فقال بعضهم لبعض: والله هذا الذي توعدكم اليهود به، فلا يسبقنكم إليه ثم انصرفوا إلى بلادهم.

وعلى الأغلب أن الرسول ﷺ تطلع إلى يثرب و نجح في مسعاه نتيجة لأوضاعها الداخلية السالفة الذكر، إضافة إلى أنها تتمتع بأرض زراعية خصبة تؤمن لها اكتفاءً ذاتياً من المحاصيل، إلى جانب قربها من طريق القوافل التجارية الذي يؤمن لها وارداً مهماً عدا عن إمكانية تهديد نشاط مكة التجاري، كذلك فإن يثرب لم يكن لها فائدة مادية من التمسك بالوثنية كما هو حال قريش في مكة ؛ ومن هنا فهي لن تتضرر من قيام هذا الدين الجديد كمكة، وبالتالي لن تتأثر زعامتها السياسية والدينية، ولا شك أن الرسول ﷺ

كان يدرك ما يحيط بيثرب، ولا يستبعد أن يكون قد ركز على أهلها أكثر من غيرهم، وهو المدرك لكل خطوة يخطوها كما اتضح من سير الأمور لاحقاً.

لهذا يمكن التنبؤ أن يثرب كانت مهيأة لأن تكون مركزاً للدعوة، وحاضرة لقيام الدولة الإسلامية... . ولقد قبل الأوس دعوة محمد ﷺ ورحبوا به لاعتقادهم أنه لن يتقدم عليه أحد بيثرب، أما الخزرج فكانوا يرون أن محمد ﷺ من أفضل بيوتات قريش والعرب وتجمعهم به صلة القربى والنسب، فأم جده عبد المطلب من بني النجار إحدى بطون قبيلتهم... .

وهكذا نجد أن هذه الأسباب مجتمعة ساعدت على توجه الرسول ﷺ إلى يثرب ونجاح دعوته فيها، وجعلها مقراً للدولة العربية الإسلامية؛ وتسميتها بمدينة الرسول ﷺ، أو المدينة المنورة، لما لا وهو داعية الوحدة والتضامن تحت لواء دين يجمع ولا يفرق، وفوق كل عصبية ونزاع.

ب ــ انتشار الدعوة الإسلامية بين الأوس والخزرج:

كان لقاء الرسول ﷺ الأول مع بعض الأوس الذين قدموا إلى مكة يطلبون محالفة قريش ضد قومهم من الخزرج؛ وعندما أتاهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام، قال أحدهم وهو إياس بن معاذ: هذا والله خير مما جئنا له، ثم عاد وفد الأوس إلى يثرب دون أن يعقدوا حلفاً مع قريش وكان ذلك في السنة العاشرة من بعثة الرسول ﷺ .

اللقاء الثاني كان في موسم الحج التالي ليوم بعاث (الحادية عشرة للبعثة ٦١٩م/ ٣ق هـ)، حيث التقى الرسول ﷺ ستة أفراد من الخزرج عند العقبة(موضع في طريق مكة على مقربة من منى، فيه الجمرة أو العمود الذي يرجمه الحجاج، عنده صارت" بيعة النساء" ــ ولعلها سميت ببيعة النساء لوجود عفراء بنت عبيد بن ثعلبة بها، وهي أول امرأة بايعت الرسول ﷺ ــ و"بيعة الحرب"، فدعاهم إلى الإسلام وأن يؤمنوا بالله الواحد؛ ثم قرأ عليهم بعضاً من آيات القرآن الكريم، فلقيت دعوته قبولاً منهم، وعادوا إلى يثرب حيث أخذوا ينشرون الإسلام بين قومهم)، وانتشر ذكر رسول الله ﷺ في يثرب وذلك بفضل استعدادها لقبول الدعوة الإسلامية (٢٦).

١٠ــ المفاوضات مع أهالي يثرب وبيعتا العقبة الأولى والثانية:

أ ــ بيعة العقبة الأولى:

وفي موسم حج سنة ٦٢١ م محمد ﷺ (السنة ١٢ من البعثة) عاد إلى مكة خمسة من اليثربيين الستة الذين آمنوا بدعوة الرسول ﷺ في الموسم الفائت ومعهم سبعة آخرون بينهم ثلاثة من الأوس والباقي من الخزرج. وقد تم لقاء هذا الوفد مع الرسول ﷺ في موقع العقبة، وأسفرت عنه بيعة العقبة الأولى؛ التي سميت ببيعة النساء، لأنها كانت بيعة لأخذ العهد

والميثاق، ولم يكن فيها بيعة على القتال أو الحرب. ويتحدث عبادة بن الصامت عن هذه البيعة قائلاً: " كنت فيمن حضر العقبة الأولى وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا، ونأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصاه في معروف".

ثم بعث معهم الرسول ﷺ مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف إلى يثرب ليعلم أهلها الإسلام ويقرئهم القرآن، ويفقههم في الدين، ولم يمض عام حتى أصبحت كل أسرة من عرب يثرب تضم فريقاً ممن دخل الإسلام على يد مصعب(٢٧).

ب ـــ بيعة العقبة الثانية:

في العام الثالث عشر من البعثة الذي يوافق ٦٢٢م، قدم وفد من يثرب إلى مكة عددهم ٧٣ رجلاً وامرأتان، وكانوا يرغبون بمقابلة الرسول ﷺ ، فاجتمع بهم عند أسفل العقبة حتى لا يثير قريش ولا يستهدف لعداوتها، ومعه عمه العباس بن عبد المطلب الذي كان لايزال على دين قريش؛ وجاء ليستوثق من أن ابن أخيه في أمان، وأبو بكر وعلي بن أبي طالب. و قد بدأ العباس بالكلام فقال مخاطباً الوفد: " يا معشر الخزرج إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز في قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم؛ واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن دعوه، فإنه في عز ومنعة في قومه وبلده".

قال الخزرج :" قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ". فقال الرسول ﷺ بعد أن تلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام، مبينا الضمانات التي يطلبها حتى يترك مكة وينتقل إلى يثرب: " أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم"، فأجابوه بقبول الدعوة الإسلامية، وبايعوه وتعهدوا له بالدفاع عنه، كما رحبوا بهجرته إلى بلدهم، وبعدها دار بينهم حوار حول مستقبلهم معاً ثم اتفق الرسول ﷺ معهم على أن يختاروا منهم اثني عشر نقيباً يمثلون قومهم، فاختاروا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. وعرفت هذه البيعة التي مهدت للمسلمين طريق الهجرة إلى يثرب؛ ببيعة العقبة الثانية، وبيعة الحرب، لأن الرسول ﷺ بايعهم على حرب الأسود والأحمر من الناس، وعلى أن لهم بالجنة التي وعد الله بها المؤمنين.

وفقاً لتقييم محمد عبد المعز نصر فإن بيعة العقبة الثانية: " هي الميثاق الفعلي لقيام دولة المدينة، إذ فوق كونها معاهدة على الإيمان بالله ورسوله، فهي معاهدة سياسية وعسكرية، تضمنت في نصوصها مبدأ المسؤولية المشتركة بين صاحب الرسالة الإسلامية و بين أنصاره من الأوس والخزرج، وقد حرص الطرفان على تأكيد هذه المسؤولية بين الحاكم والمحكوم.

فشروط الدعوة والإيمان في هذه المعاهدة لم تقتصر على مجال الفكر والقول، بل تعدته إلى مجال العمل والتنفيذ".

حرص المسلمين على إخفاء خبر البيعة حتى لا تعلم قريش؛ حيث أن حماية الأوس والخزرج للرسول ﷺ لا تبدأ إلا بعد وصوله إلى يثرب، إضافة إلى أن الرسول ﷺ لم يكن قد أمر بالقتال بعد(٢٨).

١١ ــ هجرة الرسول ﷺ إلى يثرب ٨ ربيع الأول ١هـ/ الموافق ٢٠ أيلول ٦٢٢م:

عندما علمت قريش بنبأ تحالف الرسول ﷺ مع عرب يثرب اضطربت؛ وزادت في أذى المسلمين، الذين أذن لهم الرسول ﷺ بالهجرة إلى يثرب وشجعهم عليها قائلاً: " إن الله قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها"، فتجهزوا إليها في ستر وخفاء؛ متعاونين متضامنين، وخرجوا جماعة بعد أخرى، تاركين أموالهم وأرزاقهم، حتى لم يبق في مكة إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب، ومن اعتقل من قبل المشركين.

ولما بلغ قريش تأهب الرسول ﷺ للهجرة إلى يثرب، اجتمع رجالها بدار الندوة واتفقوا على قتله، فأعلمه الله بذلك. وخرج من داره ليلاً بعد أن أمر علي بن أبي طالب أن ينام في فراشه ليظلل قريشاً، والتقى أبا بكر وأخبره أن الله قد أذن له في الخروج من مكة، وطلب منه أن يصحبه في هجرته، ومضيا معاً إلى غار في جبل ثور.

كانت قريش إذ ذاك ترقب حركات الرسول ﷺ ، وانتدبت من تتبع أثره حتى وصل بعضهم إلى الغار، فأوجس أبو بكر خيفة، وأخذ الرسول ﷺ يهدئ من روعه. و إلى ذلك يشير القرآن الكريم في سورة التوبة (آية ٤٠):" إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله العليا والله عزيز حكيم".

استطاع الرسول ﷺ وصاحبه بعد جهد وملاحقة شديدة من قريش أن يصلا إلى يثرب بعد أن أمضيا ثلاث ليال في الغار، حيث انطلقا مع دليلهما عبد الله بن أريقط الديلي(من بني الدئل) وعامر بن فهيرة؛ إلى أن وصلا في الرابع من أيلول عام ٦٢٢م إلى قباء إحدى ضواحي يثرب، على الرغم من أن قريشاً أعطت مئة ناقة مكافأة لمن يرده إليها، وقد طمع سراقة بن جُعشم المدلجي بهذه الدية القيمة، لذلك لحق بالرسول ﷺ؛ لكن محاولته باءت بالاخفاق.

في قباء نزل الرسول ﷺ على كلثوم بن الهدم من بني عمرو بن عوف، وأقام عنده أياماً ينتظر قدوم علي بن أبي طالب،وأسس مسجد قباء أول مسجد يبنى في الإسلام.

تابع ركب الرسول ﷺ مسيره إلى يثرب حيث استقبله المسلمون ــ المهاجرون والأنصار ــ على مشارفها أحسن استقبال، ودخل على راحلته (ناقته) مدينة يثرب، التي

الفصل الثالث

قيام دولة الرسول ﷺ في المدينة المنورة

١ ــ سياسة الرسول ﷺ الإدارية بعد هجرته إلى المدينة:

تعد الهجرة حدثاً من الأهمية والخطورة بمكان في تاريخ الإسلام، لأنها كانت حداً فاصلاً بين مرحلة الضعف وقلة الأنصار، ومرحلة جديدة أسس فيها الرسول ﷺ دولة قوية يحسب حسابها بين القوى الكبرى آنذاك. فبعد وصوله إلى المدينة لم تعد مهمة الرسول ﷺ تقتصر على تبليغ الوحي والدعوة إلى دين الله فحسب؛ بل أصبح قائد المسلمين وزعيمهم وعليه أن يرسم خطة جديدة تلائم الأرض الجديدة التي يسود فيها الإسلام، وينظم حياة أتباعه وعلاقاتهم الداخلية فيما بينهم، وعلاقاتهم مع غيرهم في شتى المجالات. لذلك أخذ يهتم بالأسس الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية التي يجب أن تقوم عليها دولته الناشئة؛ ولهذا ركز اهتمامه على:

أ ــ تنظيم صفوف المسلمين:

انتقلت الدعوة الإسلامية إلى دورها المدني بفضل الظروف والعوامل التي سبق ذكرها. وهنا بدأت مرحلة جديدة للدعوة يتم فيها وضع أسس النظام السياسي والاجتماعي والإداري.

١ ـ بناء المسجد:

توجب على الرسول ﷺ العمل على تأسين إقامته وأصحابه من المهاجرين، وكان أول عمل بدأ به هو إيجاد مقر له يلتقي بالمسلمين فيه للتشاور في أمورهم واتخاذ القرارت التي تخص مختلف جوانب حياتهم، ولهذا تم بناء مسجد المدينة في المكان الذي بركت فيه ناقته، وقد اشترك الرسول ﷺ في بنائه مع صحبه من المهاجرين و الأنصار، فكان قدوة للجميع ولمن بعده في احترام العمل وتقديره. ونفذ المسجد رسالة مهمة تبلورت مع تطور الدولة منذ إنشائه؛ حيث كان:

- مكاناً للعبادة والصلاة، ومدرسة للتعليم والتهذيب.
- داراً للشورى يتداول فيه الرسول ﷺ والمسلمون في أمورهم وشؤونهم الخاصة.
- محكمة للقضاء يفصل فيها الرسول ﷺ بما أنزله الله بين المتخاصمين.
- مركزاً للقيادة العسكرية، فكان يعقد فيه الألوية للرؤساء والقواد.
- ديواناً يدون فيه القرآن الكريم وتكتب الرسائل والمعاهدات.
- مأوى لإقامة فقراء المسلمين من ليس لهم منازل.
- نزلاً لاستقبال الوفود والرسل الذين توفدهم دولهم إلى الرسول ﷺ.

صارت تدعى منذ وصوله إليها: بالمدينة المنورة أو المدينة، وكان كلما مر على دار من دور الأنصار يدعونه إلى المقام عندهم، قائلين: يا رسول الله، هلم إلى القوة والمنعة، فيقول:" خلوا سبيلها(يعني ناقته) فإنها مأمورة "، ولم تزل ناقته سائرة به حتى أتت دار بني مالك بن النجار؛ بركت في مربد لغلامين يتيمين من بني النجار، فنزل الرسول ﷺ ، وكان بجوار المربد منزل لأبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري، حيث حل الرسول ﷺ عليه ضيفاً مدة سبعة أشهر، واشترى الرسول ﷺ المربد بعشرة دنانير وأمر أن يبنى في مكانه مسجداً للمسلمين، ويبنى إلى جانبه مساكنه التي انتقل إليها(٢٩).

وهكذا انتهت المرحلة المكية التي كانت بمثابة إعداد روحي ومعنوي لأفراد الأمة الإسلامية، وتهيئة ذهنية ونفسية لهم، وصقل لقوتهم وسبر لمدى مقدرتهم على الاحتمال، الذي ضرب فيه الرسول ﷺ المثل في التصدي لكل العقبات والمشكلات، واستطاع فيها قيادة أتباعه بحكمة ومقدرة ورباطة جأش ونظرة ثاقبة للأمور تجلت في : طريقة معالجته لكل ما واجهه من أزمات، وفي انسجام وتماسك المسلمون الأوائل، الذي مثل الأساس المكين للمجتمع الإسلامي، ومهد للحقبة المدنيّة من العصر النبوي.

لقد أنقذت الهجرة الدعوة الإسلامية، وانتقلت بها من مرحلة الضعف إلى القوة، ومن الدعوة إلى الدولة، وكانت بداية رسم خطة جديدة تلائم الأرض الجديدة؛ والسيادة فيها للإسلام.

ويمكن القول أن الرسول ﷺ كان يمارس عمله ويدير دولته من المسجد، الذي كان مركزاً للسلطات : التشريعية والتنفيذية والقضائية آنذاك(٣٩).

٢ . المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

تلا بناء المسجد خطوة هامة جداً في سبيل إرساء قواعد الانسجام في مجتمع المدينة وهي المؤاخاة بين المسلمين، تأكيداً لقوله تعالى:"إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض"(٤٠).

إن إلقاء نظرة على مجتمع المدينة حين هاجر إليها الرسول ﷺ تمكن من التمييز بأنه يتألف من الفئات التالية:

- المسلمون من الأوس والخزرج الذين عرفوا بالأنصار.
- بعض المشركين من قبيلتي الأوس والخزرج.
- عشائر اليهود.
- المهاجرون الوافدون من مكة بصحبة الرسول ﷺ.
- المنافقون الذين كان إسلامهم ظاهرياً.

كانت المشكلة الأولى التي واجهها الرسول ﷺ في المدينة؛ مشكلة اقتصادية نبعت من واقع أصحابه المهاجرين الذين تركوا أموالهم في مكة؛ ولا أمل لهم في العودة واسترداد ما يملكون، وهنا حاول ﷺ أن يقيم رابطة متينة من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وينظم صفوفهم يؤكد وحدتهم عن طريق تآلفهم. ولهذا كله أوجد الرسول ﷺ نظام المؤاخاة على مراحل: الأولى آخى فيها بين المهاجرين بعضهم لبعض؛ والثانية آخى فيها بين الأنصار بعضهم ببعض، والمرحلة الثالثة كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

وقد آخى الرسول ﷺ بينهم جميعاً على الحق والمؤاساة والتوارث بعد الموت دون ذوي الأرحام؛ بمعنى أن يرث المهاجر أخاه الأنصاري والعكس بالعكس، غير أن المؤاخاة في الميراث لم تلبث أن نسخت بعد غزوة بدر الكبرى التي هزم فيها المشركين وعز الإسلام ، وحصل المسلمين على بعض الغنائم، وأصبح الميراث وقفاً على الأقرباء من دون الناس لقوله تعالى:" والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم"(٤١).

تيسرت سبل العيش على المهاجرين بفضل حسن معاملة الأنصار لهم، ذلك أنهم منحوهم بعض أموالهم وسمحوا لهم بالتجارة والاشتراك معهم في زراعة أراضيهم، كما كان لفرض الزكاة على المسلمين بعد قدوم الرسول ﷺ إلى المدينة أثر في تحسين أوضاعهم. كذلك أذن الرسول ﷺ لفقراء المسلمين بالمدينة الذين لا يملكون المأوى ولا عشائر لهم أن يبيتوا في

المسجد، وكان يدعو طائفة منهم لتناول العشاء معه، ويكلف أصحابه بإطعام الآخرين؛ وقد عرف هؤلاء بأهل الصفّة، لأنهم كانوا يأوون إلى صفّة المسجد(المكان المسقوف منه).

وتدل عملية التآخي على حسن تدبير الرسول ﷺ حيث توثقت وحدة المسلمين في المدينة، وأصبحوا يشكلون قوة كبرى لها خطرها، يحسب لها المشركين في مكة حساباً كبيراً.

كما كان التآخي تأكيداً لمبادئ الإسلام في المساواة بين المسلمين جميعاً، حيث تجلى في التآخي بين أفراد من القبائل الكبيرة وبين بعض الموالي والعبيد. عدا عن هذا فقد ساهمت المؤاخاة في انصهار المسلمين في بوتقة الإسلام فتشكلت منهم أسرة إسلامية متعاونة ومتحابة، ويربطها رباط التوحيد، ناسية العصبية القبلية الجاهلية؛ صارت ركيزة سياسية للمجتمع الإسلامي(٤٢).

٣ . دستور المدينة:

استمراراً في ترسيخ وتطوير أركان مجتمعه الجديد ودولته، في سائر المستويات السياسية والاقتصادية والعلمية، قام الرسول ﷺ بوضع نظام للحياة العامة لمجتمع المدينة بمختلف فئاته المسلمة وغير المسلمة، وأعلن ذلك بوثيقة خطية(صحيفة) أشارت إليها المصادر التاريخية، وعدت أساساً لتحقيق الوحدة بين أهالي هذه الدولة الناشئة وبخاصة المسلمين ومن التزم بها من غيرهم، وهذه الوثيقة هي كتاب موادعة بين المهاجرين والأنصار واليهود، وقد صدرت قبل أن ينصرم العام الأول من الهجرة، ولعل أهم المبادئ الواردة في الوثيقة هي التالية:

أ. عد جميع المسلمين على اختلاف فئاتهم وانتمائهم القبلي أمة واحدة.

ب. التضامن التام والمسؤولية الكاملة بين أفراد الجماعة الإسلامية.

ت. فتح المجال لليهود الراغبين في الدخول في الإسلام، وضمان الحقوق نفسها والواجبات لهم وعليهم.

ث. تقرير حرية الاعتقاد وممارسة الطقوس الدينية لليهود.

ج. الحق في فض الخلافات بين أهل المدينة يعود لله وللرسول ﷺ.

ح. الدفاع عن المدينة مسؤولية جماعية تتساوى فيها جميع الفئات.

خ. أوضحت الوثيقة ما يتبع في الحرب التي قد تقع بين المسلمين في المدينة وأعدائهم، وتقرر أن كل جماعة تنفق على نفسها، " وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الوثيقة ".

د. قررت الصحيفة حرمة المدينة، أي يحرم فيها ما يحرم في مكة.

ذ. بينت كيفية التعامل مع قريش التي كانت إذ ذاك تقف من المسلمين موقفاً عدائياً، " وإنه لا تُجَارُ قريش ولا من نصرها وإن بينهم النصر على من دَهَم يثرب ".

بالاطلاع على الوثيقة نجد أنها تضمنت أحكاماً وشروطاً خاصة بجميع فئات المدينة ومجتمعها الجديد بعد هجرة الرسول ﷺ إليها. ويتضح من نصوص الوثيقة أن الرسول ﷺ أصبح المرجع وصاحب الحكم والسلطان إن لم يكن على جميع أهل المدينة، فعلى من آمن بالإسلام وارتضاه ديناً وعقيدة وتم تحديد واجباتهم وحقوقهم. ومن هنا يمكن عد هذه الوثيقة التي تتفق مع منطق الأحداث في المدينة؛ بمثابة دستور للدولة الإسلامية الجديدة، كونها حددت العلاقات بين المسلمين من جهة وبين المسلمين واليهود وغيرهم من جهة أخرى، وتضمنت الكثير من القضايا المهمة مثل: عد جميع المسلمين على اختلاف قبائلهم أمة واحدة، وإعلان مبدأ التضامن والتعاون بين الجماعة الإسلامية، وتقرير حرية الاعتقاد لليهود، وعد الرسول ﷺ المرجع في كل شيء، وما يختلف عليه يرد إلى الله والرسول ﷺ ، وغير ذلك من القضايا ... التي بينتها(٤٣).

٢ ــ أعمال الرسول ﷺ العسكرية:

أ ــ تشريع الجهاد:

اتسمت الدعوة الإسلامية طيلة المرحلة المكية (١٣ سنة)، بالطابع السلمي، حيث عمد الرسول ﷺ في نشر دعوته إلى المجادلة والإقناع وإقامة الحجة والدليل والبرهان والموعظة، فلما اشتد أذى المشركين على المسلمين واضطروهم إلى الهجرة إلى الحبشة أولاً ثم إلى المدينة ثانياً. استمر هذا الأسلوب حتى بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة على الرغم من ظهور مبدأ القوة المادية فيها، عندما أصبح المجتمع الإسلامي الجديد يشكل قوة تستطيع الوقوف أمام أعدائها.

بعد أن تأكد للرسول ﷺ عزم قريش وحلفائها القضاء على الدين الجديد؛ بدأت فكرة الجهاد تتكون وتنمو، وكانت بذورها تعود إلى بيعة العقبة الثانية ــ التي عرفت ببيعة الحرب ــ، حيث تعهد فريق من الأوس والخزرج للرسول ﷺ بالدفاع عنه وحمايته، وتعهد لهم بالعمل على نصرتهم. وقد أشار دستور المدينة إلى معنى الحرب والسلم.

رغم كل هذا لم يقاتل الرسول ﷺ إلا عندما تلقى الوحي بذلك لنصرة دينه، وتأمين مجتمعه الإسلامي من الفتنة، وتأكيداً لهذا المعنى تتابعت الآيات الكريمة في مشروعية الجهاد والقتال ضد أعداء المجتمع الجديد كقوله تعالى:

" أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله "(٤٤).

" وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير"(٤٥).

" وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين* واقتلوهم حيثما ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه* فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم* وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين* الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين"(٤٦).

" كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون* يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون" (٤٧).

" وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين قالوا ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا"(٤٨).

التبصر في هذه الآيات الكريمة، يبين أن الإسلام لم يشرع القتال إلا للدفاع عن النفس والعرض ورد المعتدين وكان مقتصراً على قتال قريش، ولكن عندما تحالف اليهود مع قريش وقبائل العرب المختلفة ضد المسلمين أمر الله المسلمين بقتال المشركين من كافة القبائل لتأمين الدعوة الإسلامية والدفاع عنها وذلك في قوله ﷻ :

" وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا ان الله مع المتقين" (٤٩).

" فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما" (٥٠).

" إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم"(٥١).

وهنا نلاحظ أن الإسلام لم يشرع القتال ضد من يخالفون الدين ما داموا مسالمين " لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين* إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون"(٥٢).

إلى جانب تشريع القتال للمسلمين شرع الإسلام السلام أيضاً، و وجه الرسول ﷺ إلى حثهم على التأهب والاستعداد لقتال أعداء الله ﷻ :

" وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم* وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين"(٥٣).

" وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون"(٥٤).

" يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبون مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبون ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون"(٥٥).

مما عرض من آيات الله البيّنات التي شرعت الجهاد؛ نجد أن مشروعية الجهاد أعطت بعداً جديداً للمجتمع الإسلامي متمثلاً في مبدأ القوة، وأعطى لدولة المدينة صفة سياسية لم تحملها من قبل، وأصبح لها الحق في الدفاع عن نفسها ضد أعدائها سواء في الداخل أو الخارج.

وقد علل المؤرخون أسباب نزول الإذن بالقتال بما يلي:

١ ـ الدفاع عن النفس في حالة تعدي أحد على المسلمين .

٢ ـ الدفاع عن الدعوة وصد من يقف في سبيلها حتى لا يفتن المسلمون عن دينهم؛ أو حتى لا يخشى من يريد الدخول في الإسلام من الدخول فيه خوفاً من العذاب أو الأذى.

٣ ـ محاربة من أخرجوهم من ديارهم واغتصبوا أموالهم وأملاكهم بغير حق.

٤ ـ تدعيم مركز المدينة السياسي مما سيمكن المسلمين من تحسين وضعها الاقتصادي بحيث يمكن الاستفادة من موقعها لممارسة التجارة .

ب ـ الجهاد في الإسلام:

١ ـ بدء الأعمال العسكرية:

بعد أن استقر ﷺ في المدينة المنورة، وأسس دولته من المهاجرين والأنصار، بدأ بتنفيذ خطة الجهاد في سبيل الله، وقد ركز نشاطه ضد قريش في مكة التي كانت زعيمة الوثنية في الجزيرة العربية، لأن انتصاره عليها يشكل الإنطلاقة الرئيسية لتحقيق أهدافه في نجاح دعوته والتمكين لدولته الناشئة. خصوصاً وأن الله فرض الجهاد على المسلمين بعد الهجرة بحوالي السنة، بعد النهي عنه في نيف وسبعين آية، فقد أعطى تشريع الجهاد للمسلمين صفة سياسية وأعطى مجتمعهم صفة الدولة. إذ أن الدعوة الإسلامية لابد لها من قوة تحميها ولأن الحق والحرية لا يعيشان إلا في ظل القوة والنظام، وتنفيذ أحكام الشرائع والنظم الاجتماعية يلزمه سلطة قادرة على ذلك. وقد انسجمت أعمال الرسول العسكرية الأولى مع

الأهداف التي شرع الجهاد من أجلها، ولهذ سار بخطى مدروسة وبإرادة قوية، حتى تمكن من من القضاء علىمعقل الشرك في مكة، وبسط سيطرته على الجزيرة العربية؛ ثم وجه أنظاره إلى خارج الجزيرة العربية، ما ترتب عليه خوض غزوات عسكرية كبيرة وذات أهمية.

نتيجة إدراكه ﷺ أن غنى قريش التجاري هو مصدر قوتها وغناها وبالتالي أهميتها، فقد قرر أن يهددها به، لأن القرشيين كانوا قد اغتصبوا من المسلمين أموالهم وأخرجوهم من ديارهم، فحق للمسلمين أن يترصدوهم لاسترداد أموالهم وثأراً لكرامتهم، لهذا ويهدف زعزعة قريش وأحلافها أخذ:

ـ يتقصد مهاجمة القوافل التجارية المتوجهة من وإلى مكة.

ـ العمل على استمالة القبائل العربية المقيمة على طريق مكة بالقرب من المدينة.

ـ إيجاد الأنصار خارج المدينة لتعزيز مكانتها.

كانت أعمال الجهاد على نوعين:

ـ السرايا وهي الأعمال العسكرية التي كلف بقيادتها أحد الصحابة.

ـ الغزوات وهي الحملات التي كان يقودها ﷺ بنفسه.

السرايا:

كانت السرايا الإستطلاعية هي أول الأعمال العسكرية التي كانت تهدف في البداية إلى رصد قريش وأخبارها وتحركاتها المختلفة، من أجل إرباكها خصوصاً في مجال نشاطها التجاري الذي يمثل عماد كيانها ووجودها.

أهم السرايا قبل غزوة بدر:

ـ من المرجح أن سرية حمزة بن عبد المطلب (سيف البحر)، التي أرسلت في شهر رمضان بعد سبعة أشهر من بدء الهجرة هي أول هذه السرايا، وكان لواء هذه السرية لعم الرسول حمزة أول لواء يعقد في الإسلام والدولة العربية الإسلامية، وذلك على رأس ثلاثين من رجال المسلمين، وبعدها توالت سرايا الرسول ﷺ وغزواته.

ـ سرية رابغ في شوال سنة ١هـ بقيادة عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب.

ـ سرية الخرار في ذي القعدة سنة ١ هـ بقيادة سعد بن أبي وقاص.

ـ سرية نخلة في رجب سنة ٢ هـ بقيادة عبد الله بن جحش، وفيها حصل أول قتال فعلي مع قريش غنم المسلمون ما كانت تحمله إبل قريش من البضاعة.

واستمر إرسال السرايا طوال زمن الرسول ﷺ إلا أنه لم يتم فيها قتال يذكر غير أن فوائدها كانت كبيرة بالنسة للمسلمين؛ حيث كسرت الحاجز النفسي لديهم بسبب منعهم من القتال ١٤ سنة، وتربيتهم على فنون القتال المختلفة، وعرفتهم على الدروب والطرق حول المدينة وبذلك أدركوا نقاط الضعف والقوة في المنطقة، هذه السرايا المتكررة أشعرت القبائل

المحيطة بقوة المسلمين ولدخلت الرهبة في قلوبهم منهم، وبالتالي مكنت المسلمين من عقد بعض معاهدات حسن الجوار أو دفاع مشترك مع بعض القبائل، وكانت أيضاً بمثابة الإعلان للحرب على أهل مكة الكافرين الذين تأثروا سلبياً من الناحية النفسية وهم يشاهدون قوة المسلمين تنمو وجرأتهم تتزايد.

غزوات الرسول ﷺ :

قاد الرسول ﷺ العديد من الغزوات ضد المشركين؛ على سبيل المثال: غزوة الأبواء (ودان)، بُواط، سفوان، ذي العشيرة، بنو سليم، السويق، بدر، أُحُد، بئر معونة، يوم الرجيع، بنو النضير، بنو لحيان، بنو المصطلق... إلخ.

وهكذا دعم مبدأ الجهاد وتكررت المعارك العسكرية بين القوتين، وحدثت وقائع مهمة (غزوات أو سرايا) بين المسلمين والمشركين يعد من أبرزها بدر، وأُحُد، والأحزاب (الخندق)، إلى يوم الفتح ومعركة حنين والطائف ... إلخ.

معركة بدر الكبرى ٢هـ/ ٦٢٤م:

كانت أول مواجهة عسكرية بين المسلمين بقيادة الرسول الكريم والقرشيين بقيادة أبي جهل وقد انتصر فيها المسلمون، وقتل أبو جهل مع عدد من أبرز رجالات قريش وأشدهم شجاعة، وأخذت المدينة تظهر في مجتمع الجزيرة كقوة سياسية وعسكرية تستطيع أن تتحدى مكة، وقوي مركز الرسول في المدينة، وأخذ المتشككون في مقدرته يشعرون أن دعواهم تنهار بعدما قدمه النصر له في بدر من برهان على هذه المقدرة.

أدرك الرسول ﷺ بعد بدر، أن الحرب هي الطابع الذي سيسم علاقاته مع قريش والمكيين، الذين سيصارعون من أجل رفع سيطرة الرسول عن الطريق التي تسلكها قوافلهم، وسيعملون لا محالة على استرداد مركزهم وهيبتهم؛ فكانت غزوة أحد.

غزوة أُحُد ٣هـ/ ٦٢٤م:

نتيجة للخسارة التي حلت بقريش في معركة بدر، ورغبة في الثأر لمن قتل من أشرافها، ولما لحق بها من العار؛ استنفرت قريش حلفائها من قبائل كنانة وأهل تهامة وثقيف للاشتراك معها في حرب المسلمين بقيادة أبو سفيان، في المعركة التي جرت عند جبل أحد والتي هزم فيها المسلمين، الذين كان النصر حليفهم في البداية، لكنهم خسروا الجولة الأخيرة بسبب ابتعادهم عن الهدف الرئيسي لهم وهو القتال، والتوجه نحو الغنائم وعدم الالتزام بالأوامر وترك الرماة لأماكنهم على الرغم من تأكيد الرسول على هذه المهمة القتالية والاندفاع باتجاه الغنائم، مما زاهم ثقة بالرسول وقيادته الحكيمة وبعبقريته العسكرية، وعلى الرغم من كل شيء خرج الرسول ﷺ من هذه المعركة قوي العزيمة، أما المسلمين فقد

زادتهم هذه الهزيمة استعداداً للقتال والمضي للقضاء على قريش عملاً على قيام المدينة ونجاح ثورتها الإصلاحية بقيادة الرسول ﷺ لاستلام زمام الأمور في جزيرة العرب.

لا بد من القول أن معركة أحد كانت خسارة كبيرة للمسلمين ونصراً لقريش، التي انتقمت ليوم بدر؛ لكنها لم تحقق هدفها بالقضاء على محمد وحركته الثورية الجديدة، ولم تتجرأ على مهاجمة المدينة وتأديبها، ولم تحقق الربح الكبير فعدد قتلاها في المعركتين يعادل شهداء المسلمين فيهما، ولم تتمكن من تحقيق أهدافها لا المعلنة ولا الخفية!!؟.

غزوة الخندق (الأحزاب) ٥ هـ/ ٦٢٧م:

هي استورار لمحاولات المشركين للقضاء على محمد وقوته النامية في المدينة، السبب المباشر لها هو: التحالف اليهودي في خيبر، الذي تزعمته قبيلتا بني قينقاع وبني النضير اللتان كان الرسول ﷺ قد أجلاهما عن المدينة لنقضهم الاتفاق معه، إذ قام حيي بن أخطب النضري بتحريض قريش ضد المسلمين واستعداده للتحالف معهم وإثارة بعض القبائل مثل غطفان وإغرائها بمنحها غلة خيبر لسنة كاملة إذا ما نصرتهم ضد محمد.

هكذا زحف ١٠ آلاف مقاتل من جند هذه الأحزاب في ثلاث مجموعات:

- قريش وأحباشها وأحلافها من كنانة وتهامة وبنو سليم وبنو أسد وغيرهم بقيادة أبو سفيان.
- مجموعة غطفان بقيادة عيينة بن حصن بن حذيفة الفزاري.
- اليهود بقيادة حيي بن أخطب.

وقد جمعت هذه الفئات المتناقضة الثلاثة المصالح المشتركة في القضاء على المسلمين والحصول على الغنائم، أما اليهود فكانوا يتطلعون لاستعادة نفوذهم، وثرواتهم التي كانت لهم في المدينة.

عندما علم المسلمون بأمر هذا التحالف رسموا خطة الدفاع عن المدينة ودعموها بحفر خندق حول المدينة.التي حاصرتها قريش وأحلافها ٣٠ يوما وكانت آثار الحصار سيئة على المسلمين ولكنهم صمدوا، وهزمت قريش على الرغم من أنها وضعت في معركة الخندق كل ثقلها العسكري، وحشدت لها أقصى ما تستطيعه من قوة بشرية.

وهكذا خرجت المدينة قوية مهيبة الجانب، واتضح لقبائل العرب أنها لا تؤخذ عنوة.

بعد معركة الخندق لم تعد مشكلة قريش القضاء على محمد وحسب، بل غدت مشكلتها الحفاظ على وجودها، وانقلبت استراتيجية الرسول ﷺ من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم والتحدي حيث قال:" الآن نغزوهم ولا يغزوننا ".

صلح الحديبية ٦هـ/ ٦٢٨م:

كانت دعوة الرسول ﷺ أصحابه في ذي القعدة سنة ٦هـ/ ٦٢٨م إلى التهيؤ للذهاب إلى مكة لأداء العمرة نوعاً من التحدي، وإذا كانت قريش قد صدت المسلمين عن زيارة بيت

الله وأعادتهم إلى المدينة من دون أداء العمرة بعد عقد صلح الحديبية، فإن هذا الصلح كان فتحاً مبيناً عندما أنزل الله على رسوله وهو في طريق عودته إلى المدينة سورة الفتح.

بنود صلح الحديبية:

١. أن تضع الحرب أوزارها بين الطرفين لمدة ١٠ سنوات.
٢. أن يرد الرسول من يأتيه من قريش مسلماً دون إذن وليه؛ ولا تلتزم قريش برد من يأتيها من عند الرسول.
٣. من أراد الدخول في عهد قريش فله ذلك؛ ومن أراد الدخول في عهد محمد من غير قريش جاز له ذلك.
٤. أن يعود الرسول وأصحابه هذا العام على أن يدخلوا مكة العام القادم.

تقييم الصلح وبنوده:

وتظهر بنود الصلح ولا سيما البند المتعلق بوقف الحرب بين المسلمين وقريش مدة ١٠ سنوات: أن الرسول لا يكن نوايا عدوانية ضد قريش وأنه يفضل السلم، أما البند الخاص بتأجيل العمرة إلى العام التالي فله وجهان: وجه يظهر أن قريشاً استطاعت إنقاذ ماء وجهها، وردت الرسول دون أن يحقق هدف زيارته، ووجه يبرز تقديس المسلمين للكعبة ويظهر أمام القبائل إحترامهم لمقدساتها، كما يؤكد اعتراف قريش بمحمد ﷺ وعدها له نداً تفاوضه وتعقد معه المعاهدات، ولعل أهم المكاسب التي حققتها بنود هذا الصلح قبول قريش بأن يكون للقبائل العربية الراغبة في الانضمام إلى حلف محمد الحق في فعل ذلك دونما خشية، كذلك صار بإمكان الرسول التفرغ لأمور الدعوة ونشر الدين بين القبائل المختلفة؛ وعليه:

١. هو يدل على حكمة الرسول ﷺ في التعامل مع قريش.
٢. الصلح أول وثيقة رسمية في تاريخ الدولة الإسلامية.
٣. إعتراف من قريش بمكانة الرسول وبدولته.
٤. تكبيل قريش وضمان حيادها مؤقتاً، وعدم إرسالها لحملة عسكرية جديدة.
٥. رفع وصاية قريش عن القبائل العربية.
٦. فسح إمكانية تشكيل حلف قبلي بزعامة الرسول.
٧. كان فرصة لتنظيم صفوف المسلمين وتنمية إمكانات الرسول لتثبيت الدعوة.
٨. سمح للرسول بالتفرغ لليهود وصد مكائدهم.
٩. أعطى للرسول الفرصة لنشر الإسلام خارج الجزيرة العربية.
١٠. كان هناك ثقة من الرسول بعدم خسارة أحد من أتباعه المسلمين.
١١. دخول العديد من الناس في الإسلام.

١٢. أحدث انقساماً في المجتمع المكي فئة الشيوخ الذين يستشعرون خطر الإسلام على أنفسهم ومصالحهم؛ وفئة الشباب التي لم يضيرها وجوده.

١٣. كان مقدمة لفتح مكة.

العلاقات مع اليهود:

أقامت في يثرب وما حولها جماعات من اليهود منذ ما قبل الهجرة؛ وكانت المنافسة قائمة بينهم وبين المسيحيين على من ينتزع الزعامة الدينية والأدبية وكسب احترام العرب والسيطرة عليهم، وتحولت المنافسة إلى صراع بدعم من الدولتين الرومانية والساسانية، إذ حدث الغزو الحبشي لليمن الذي انتهى لصالح الدولة الساسانية وحلفائها من العرب واليهود.

وقد استاء اليهود من بعثة الرسول ﷺ الذي أدرك خطر اليهود وسوء نواياهم على الإسلام، فاعتمد معهم أسلوب الموادعة والملاطفة محاولاً جذبهم إلى الإسلام وإقناعهم به، وعاملهم بحذر، وقد بين موقفه منهم في الوثيقة (الصحيفة) التي أسس بها أسس دولته الجديدة، وعلاقاته مع مجاوريه، إذ نصت هذه الصحيفة على منح اليهود حقوقهم كاملة وبينت لهم واجباتهم، حيث قرر لهم حرية العقيدة والرأي والعمل واتخذ عليهم المواثيق، التي لم يلتزموا بها. ونظروا للرسول ورسالته بعين الخوف والحسد، ومع تنامي الدعوة الإسلامية أخذوا يعملون ضد الرسول ويكيدون له وللدعوة، بتأليب قريش ضده، بل خططوا لاغتياله، وتحالفوا لتطويق دعوته، حتى أنهم فكروا في التحالف مع بيزنطه لحربه، فاقتنع ﷺ أنهم عثرة أمام تقدمه، لهذا عمل على إنهاء تسلطهم وتطهير جبهته الداخلية منهم، وقد فسح له المجال بعد صلح الحديبية، فأخذ بملاحقتهم، بادئاً بإخراجهم من المدينة، فتجمعوا في حصون خيبر وغيرها، في وادي القرى وفدك وتيماء.

أقلق هذا التجمع اليهودي الكبير الرسول وخشي من قيامهم بتحصين مناطقهم ووضعهم للخطط العسكرية والسياسية، وتوقع الرسول اتصالهم بكسرى فارس وقيصر الروم لطلب المساعدة ضده، لهذا بادرهم بالقضاء عليهم، إذ انطلق في السنة السابعة للهجرة وبعد أقل من شهر على صلح الحديبية وهاجم تكتلهم المتجمع في خيبر وفتح بعض حصونهم عنوة والبعض الآخر صلحاً، وغنم الكثير من الغنائم، وترك الأرض بيد اليهود على أن يؤدوا عنها ضريبتي الجزية (الرؤوس) والخراج (على الأرض الزراعية)، وظهر بعد ذلك مصطلح أهل الذمة (وهم رعايا الدولة الإسلامية من أهل الكتاب أي من اليهود والنصارى)، وفقاً للآيات ٢٨ ــ ٣٥ من سورة التوبة، التي حددت علاقة المسلمين بأهل الكتاب؛ إذ عدوا هم وأموالهم في ذمة المسلمين وحمايتهم لقاء دفع الجزية والخراج إذا لم يعتنقوا الإسلام ...، ومنذ ذلك انتهت السلطة السياسية لليهود، وتحدد نشاطهم في النواحي الاقتصادية والعلمية في الدولة العربية الإسلامية.

العربية الإسلامية. إذاً يمكن الاستنتاج بأن العلاقة باليهود تراوحت بين: الموادعة والمهادنة في البداية، ثم الإبعاد عن المدينة، لتتطور إلى الهجوم عليهم في حصونهم وإخضاعهم.

رسائل الرسول ﷺ للملوك والأمراء المعاصرين:

مكن صلح الحديبية الرسول ﷺ من العمل على التبشير برسالة السماء ــ إنسجاماً مع الآيات الكريمة " وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا، ولكن أكثر الناس لا يعلمون "(سبأ ٨٢)، " تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا" (الفرقان ١) ... .

إذ وجه رسائله للملوك والأمراء المعاصرين داخل الجزيرة وخارجها، فخاطب كلاً من هرقل قيصر الروم، والمقوقس صاحب مصر ونائب القيصر، وكسرى ملك فارس، وباذان نائبه في اليمن، ونجاشي الحبشة، وأمراء الغساسنة في بصرى ودمشق، وصاحب اليمامة، وأمير البحرين، وغيرهم ....

جاءت الردود متباينة:

بعضها كانت حسنة كرد القيصر والمقوقس والنجاشي، على عكس كسرى الذي مزق رسالة محمد، وجاء رد البعض بالإيمان بالدعوة كعمال عمان، والبحرين وباذان ومن معه من الفرس في اليمن، وكان رد أمراء الغساسنة بالسخرية من الدعوة بل وقتلوا رسول رسول الله، أما صاحب اليمامة المسيحي فقد كان رده قاسياً، أما هذا الواقع اضطر محمد من أجل تحقيق شعار عمومية الدعوة أن يعتمد أسلوب القوة لنشرها والدفاع عن معتنقيها ، تذكر كتب السير تقريبا لا يقل عن ١٧ غزوة وسرية قام بها الرسول أو قادة مسلمون في المرحلة التي انقضت بين عقد صلح الحديبية وفتح مكة سنة ٨ هـ/ ٦٢٩م، أهمها الحملات التي وجهت إلى الشمال والتي يبلغ عددها ثلاث وهي: سرية كعب بن عمير الغفاري إلى ذات أطلاح، وغزوة مؤتة، وغزوة ذات السلاسل؛ بهدف إخضاع القبائل العربية في الحجاز وبلاد الشام التي وقفت ضد إصلاحاته، ولتأمين الطريق التجارية التي يوليها أهمية كبيرة.

من الملاحظ أن الرسول محمد ﷺ انفرد بين الرسل جميعاً باعتماد أسلوب الكفاح المسلح لنشر رسالته وعده أحد الخيارات لنجاح دعوته وحماية أنصاره.

عمرة القضاء ٧هـ/ ٦٢٨م:

وكنتيجة من نتائج صلح الحديبية أيضاً خرج الرسول ﷺ في ألفين من المسلمين لأداء العمرة وفقاً لما نص عليه الصلح. وقد عرفت هذه العمرة بعمرة القضاء، التي كان لها نتائج وآثار نفسية مهمة، حيث ساعدت على تآلف القلوبين المهاجرين وأقربائهم من مشركي مكة، على الرغم من موقف زعامة قريش من المسلمين، وتخوفها من انجذاب بعض المشركين للإسلام، الأمر الذي حدث بالفعل إذ اتجه بعضهم للرسول معلناً إسلامه، أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهم ممن وجد أنه لا فائدة من التجبر، وأنه من الأنسب

التخلي عن نهج قريش، ومسايرة ركب هذه الثورة المحمدية الإصلاحية الكبيرة في الجزيرة العربية.

غزوة مؤتة ٨هـ/ ٦٢٩م:

وجهت قبيل فتح مكة ضد مواقع وقبائل على الطريق التجاري إلى بلاد الشام، بسبب الاعتداء على رسول الرسول ﷺ إلى أمير بصرى وقتله في أرض مؤتة من قبل شرحبيل بن عمرو الغساني، ولهذا جهز الرسول حملة يقودها زيد بن حارثة، فإن قتل فتكون القيادة لجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فلعبد الله بن رواحة، وإذا ما أصيب فيختار المسلمون رجلاً، عندما وصل الجيش الإسلامي إلى أرض البلقاء، تجمع الروم البيزنطيون بقيادة هرقل ومعه قبائل بهراء ولخم وجذام وبلقين وغيرهم، إذ بلغ عدد أفراد هذا الجيش أكثر من ١٠٠ ألف وفقاً لبعض المصادر.

حدثت المعركة في مؤتة، وقاتل المسلمون ببسالة واستشهد كل من زيد، وجعفر وعبد الله، واختير خالد بن الوليد للقيادة، فقاتل بمهارة قتالاً تراجعياً منظماً لدرجة أن الروم خافوا الخديعة، وشعروا بأن خالد يستدرجهم إلى الصحراء، بحيث تمكن خالد من إنقاذ الجيش الإسلامي وعاد به إلى المدينة، وتعد مؤتة أول احتكاك عسكري بين الدولتين العربية والبيزنطية، وأول حركة عسكرية توسعية خارج الجزيرة العربية، وهي الوحيدة من بين السرايا التي أطلق عليها غزوة نظراً لأهميته في تاريخ الدعوة الإسلامية، فنتيجتها فتحت الأبواب لانتشار الإسلام بين قبائل نجد وعرب الشام وفلسطين، ويمكن أن تعد بداية الفتوحات العربية الإسلامية ومن مقدماتها.

فتح مكة ٨هـ/ ٦٢٩م:

أحدث صلح الحديبية شرخاً كبيراً في مجتمع مكة، إذ استمر كبار السن ورجال الأعمال في موقفهم العدائي؛ أما الشبان ومن لا مصلحة لهم في عداء الرسول؛ فقد وجدوا أنه لا فائدة في الاستمرار بمعاداة الرسول، وبدأوا بالهجرة إلى المدينة، أو الانحياز له وتزايد شعور الانتماء للرسول بالنسب والقرابة والمحبة، وبدأ علو كفة المسلمين وهبوط كفة قريش، حيث قوي المسلمون بانتصارهم العسكري والسياسي، وخسرت قريش وتفوق الرسول.

ولقد التزم الرسول بصلح الحديبية؛ أما قريش فقد خرقته وقامت بمناصرة حلفائها بني بكر على حلفاء الرسول بني خزاعة، مما أدى إلى قرار الرسول التوجه لفتح مكة. وقد بلغ الرسول في تطبيق عامل الكتمان حد الروعة؛ إذ أمر الناس أن يتجهزوا، ولكنه لم يخبر أحدا من المسلمين بنياته وأهدافه من حركته واتجاهها، ولما اقترب موعد التحرك، صرح ﷺ بأنه سائر إلى مكة المكرمة، وبث عيونه ليحول دون وصول أخبار اتجاه حركته إلى قريش التي

كانت تعرف ـــ بعد أن نقضت بنود صلح الحديبية ـــ حق المعرفة بأن المسلمين سيهاجمون مكة، ولكنها لم تكن تعلم متى وكيف وأين سيجري الهجوم.

لم تنجح سفارة أبو سفيان إلى الرسول الكريم وإعلانه خطأ قريش داعياً لتجديد الصلح.

في العاشر من رمضان٨ هـ/ ٦٢٩م أعلن الرسول النفير وخرج على رأس قوة قدرت بعشرة آلاف رجل متجهاً إلى مكة، وفي الطريق لقي عمه العباس وبعض أقربائه الذين أعلنوا إسلامهم، ثم لقي العباس أبو سفيان ساعياً لمقابلة الرسول ﷺ لأخذ الأمان لقريش، فتوسط له العباس عند الرسول ومنحه أماناً مُشَرَّفاً ينص على أن من دخل دار أبو سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه عليه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن؛ فرجع أبو سفيان إلى مكة داعياً قريشاً إلى الإسلام والإستسلام للرسول لأنه لا قدرة لها على مواجهة ما جاءها به من قوة وعتاد.

وهكذا دخل المسلمون مكة دخولاً سهلاً، دون مقاومة تذكر، إذ توجه ﷺ إلى الكعبة وطاف بها شاكراً الله على هذا الفتح العظيم، وجاءت قريش معلنة الطاعة والإسلام، وكان الرسول كريماً معهم، حيث قال لهم كلمته المشهورة " أقول كما قال أخي يوسف: عليه السلام لا تثريب ـــ لا لوم ولا تأنيب ـــ عليكم اليوم، يغفر الله لكم هو أرحم الراحمين، إذهبوا فأنتم الطلقاء "، وأعلن الرسول حرمة مكة، وأمر بتحطيم الأصنام، وكذلك وقف الهجرة.

فاتحاً مكة أنهى الرسول ﷺ قوة قريش حامية الوثنية وحولها إلى صفوف الإسلام لتعمل لاحقاً على نشر الإسلام بكل طاقاتها، وتشترك مع الرسول في معاركه اللاحقة.

معركة حنين وحصار الطائف ٨هـ/ ٦٢٩م:

عندما سمعت هوازن بما فتح الله على رسوله من نصر على قريش في مكة؛ تجمعت مع أحلاف قريش بقايا ثقيف وهوازن وقرروا مهاجمة المسلمين قبل أن تستقر أمورهم وتجمعوا في وادي حنين بقيادة "مالك بن عوف النضري" مصطحبين معهم ـــ على عادة العرب في الجاهلية ـــ أموالهم ونسائهم ليساعدهم ذلك في الحرب. حينما سمع الرسول بتحركاتهم بادرهم بجيش الفتح الذي انضم إليه ألفان من القرشيين، حيث وصل الرسول بجيشه إلى حنين، وهناك تعرض لمباغتة عند وصوله أخلت بتوازنه فتفرق رجاله منهزمين، لكن صمود وشجاعة الرسول مع أصحاب أنقذت الموقف، وأعادت للمسلمين توازنهم فاستأنفوا القتال ببسالة وهزموا جيش هوازن و ثقيف الذي بلغ حوالي ٢٠ ألف مقاتل.

هذا الانتصار كان مهماً في نتائجه من حيث العلاقات مع البدو الذين خافوا من الرسول ﷺ فقدموا لمبايعته البيعة الجماعية في هـ/ ٦٣٠م.

بعد انتصار حنين حاصر الرسول الطائف ورماها بالمنجنيق إلا أنه فك الحصار في ذي القعدة. وفيما كان ﷺ يقوم بتقسيم غانم معركة حنين أُعلنت هوازن إستسلامها ودخولها في الإسلام، في هذه الأثناء لم تستطع ثقيف الصمود والاستمرار في عنادها، فاضطرت لمفاوضة الرسول والدخول في الإسلام، وبعد ذلك انخرط الثقفيون في الإسلام وتحمسوا له؛ وقدموا للدولة العربية الإسلامية العديد من القادة والرجال الدهاة في السياسة والإدارة في العصرين الراشدي والأموي.

غزوة تبوك ٩ هـ/ ٦٣٠م:

بعد أن مكن الرسول أمره في الطائف ومكة، أمر بالتهيؤ لمواجهة الروم البيزنطيين، إذ علم أن هرقل يجمع جموعاً من قبائل لخم وجذام وغسان وعامله وغيرها في البلقاء، يريد التوجه لضرب حركة الرسول الإصلاحية في المدينة، وهكذا دعيت القبائل للمشاركة في الحرب حيث أعلن صراحة وجهة الحملة ــ نظراً لبعد المسافة وشدة الزمن وكثرة العدو ــ بهدف التجهز التام.

حين وصل الرسول إلى تبوك وجد أن هرقل في حمص. في تبوك قدم إلى الرسول مصالحاً يوحنا صاحب إيلة الذي وافق على دفع الجزية؛ كما قدم إليه أهل جرباء وأذرح معلنين الولاء والطاعة ودفعوا الجزية أيضاً، فكتب لهم الإمان وعدّهم في ذمة الله ورسوله هم ومن كان معهم من أهل الشام، وأهل اليمن، وأهل البحر.

كذلك أرسل بعض السرايا بقيادة خالد بن الوليد الذي لأخضع أمراء القرى المجاور وفرض عليهم الجزية.

وعاد الرسول إلى المدينة بعد أن مكث حوالي العشرين ليلة. وقد ترتب على هذه الغزوة الكثير من النتائج المهمة منها:

ــ كانت آخر مرة يخرج فيها الرسول ﷺ محارباً، إذ برز فيها كقائد ذو خبرة عسكرية عالية وحنكة سياسية؛ إذ أثبت للعرب و الروم ولكل القوى المعادية للإسلام بأنه أسس دولة قوية يحسب حسابها بين أطراف الصراع العالمي في ذلك الوقت.

ــ ظهر فيها العرب المسلمين كقوة عسكرية تستطيع مجابهة أكبر خطر والذود عن بلادهم.

ــ ظهر الدين الإسلامي والرسالة بمظهر الحق، وهذا ما ساعد في سرعة انتشار الإسلام في جميع أرجاء شبه الجزيرة العربية وخارجها.

ــ كانت إمتحاناً لشجاعة المسلمين وبسالتهم وقدرتهم على التحمل والصبر والمثابرة في سبيل الله، وقوة الإيمان في قلوبهم؛ فأكسبتهم القوة والمنعة والثقة بالنفس.

ــ كشفت هذه المعركة عن المنافقين في صفوف المسلمين.

ـ كانت الخطوة الأولى باتجاه فتح بلاد الشام، إذ ابتدأ بعدها التطلع للجهاد وإعلاء راية الإسلام وانطلاق الفتوحات.

عام الوفود ٩ ـ ١٠ هـ/ ٦٣٠ ـ ٦٣١م:

بعد أن رأت القبائل انتصارات الرسول والمسلمين في شبه الجزيرة العربية، وخصوصاً على مكة زعيمة الوثنية ومرتكزاتها في الطائف، تسارعت جموعها بدأ من السنة التاسعة للهجرة في التوجه إلى المدينة معلنة الإسلام والطاعة؛ إذ أسلم بنو ثقيف في الطائف، وبنو أسد في نجد، وبنو تميم، ثم تتابعت وفود اليمن وما حولها بعد ذلك في سنة ١٠ هجرية، حيث توالت الوفود إلى المدينة بلا انقطاع وعم الإسلام شبه الجزيرة بأكملها.

حجة الوداع ١٠هـ/ ٦٣٢م:

اطمأن الرسول ﷺ على الإسلام بعد أن تمكن من أرساء أسس ومبادئ تأسيس دولته ومجتمعه على العدالة والإخاء والمساواة، وحج حجته الأخيرة في ذي القعدة سنة ١٠ هـ/ آذار ٦٣٢م، حيث دعا إلى حج كبير، و في نهاية موسم الحج خطب خطبته المشهورة التي أكد فيها على مبادئ الإسلام، وذكّر بالأسس المتينة التي تشد أواصر المجتمع وتدعم الأخوة الإسلامية. وهي وثيقة عمل وتأكيد على فعل الخير والحفاظ على الدماء والأمانات والتمسك بالفضيلة والابتعاد عن القتل وسفك الدماء، وحض على المعاملة الحسنة بين أفراد المجتمع رجاله ونسائه، ممثلاً القدوة الحسنة للجميع، مبيناً لهم أن الاعتصام بكتاب الله والسنّة أمان من الضلال.

تعد خطبة الرسول ﷺ التي عرفت بـ " خطبة حجة الوداع " أو " خطبة الوداع " من أهم الوصايا في التاريخ للقادة العظام والمبشرين والرسل الدنيويين والدينيين، فكان بما بلغه من أسس ومبادئ وقواعد لبناء المجتمع وتمتينه أفضل المعلمين وخير المرسلين.

وفي صفر سنة ١١هـ/ أيار ٦٣٢م مرض الرسول ﷺ وأخذته الحمى، ثم توفي يوم الإثنين ١٠ ربيع الأول سنة ١١ هـ/ ٨ حزيران ٦٣٢م، بعد أن أنهى رسالة الإسلام التي أتت كغيرها من الديانات السماوية لخير البشرية.

التوجهات السياسية بعد وفاة الرسولﷺ:

بعيد وفاة النبي برزت عدة تيارات سياسية مختلفة الآراء ووجهات النظر حول موضوع تولي زعامة المسلمين وإدارة أمورهم فقد كان هناك: المهاجرون، الأنصار، آل الرسول ﷺ (آل البيت)، أرستقراطية المجتمع والتجار أيام الجاهلية، القبائل البدوية، المرتدون ــ المتنبئون، اليهود وموقفهم.

إجتماع سقيفة بني ساعدة:

ــ ما أن أعلن نبأ وفاة الرسول ﷺ حتى سارع الأنصار إلى الاجتماع في سقيفة بني ساعدة، واتفقوا فيما بينهم على تنصيب سعد بن عبادة زعيم الخزرج لقيادة المسلمين.

ــ عندما علم المهاجرين باجتماع الأنصار سارعوا إلى السقيفة، وعلى رأسهم أبو بكر وعمر ابن الخطاب وهناك حصل جدال ومفاوضات طويلة أسفرت عن مبايعة أبو بكر خليفة لرسول الله ﷺ ليتولى تسيير أمور المسلمين، وبهذا أوقف النقاش بين المهاجرين والأنصار.

ــ آل البيت كان على رأسهم علي بن أبي طالب ابن عم الرسول وصهره وأول فتى في الإسلام، ولكنه شغل بتجهيز جنازة ارسول ﷺ إذ لم يظن أن الأمر سيحسم بهذه الطريقة وهذه السرعة، ولكنه وافق على القرار الذي توصل إليه المسلمين في السقيفة وبايع ابي بكر.

ــ أرستقراطية المجتمع والتجار: وهم جماعة من أهل مكة والطائف من قريش وأيضاً من ثقيف، من ذوي المكانة في الجاهلية، الذين كانوا حديثي العهد بالإسلام، فحاولوا استغلال المستجدات والسيطرة على زمام الأمور، وتحويل الإسلام لمنفعتهم الخاصة ولتحقيق أهداف طبقتهم.

ــ قبائل البادية وأعرابها التي كانت أقل إيماناً وتمسكاً بالإسلام، ودانت للإسلام بالإكراه، وكانت طاعتها للرسول طاعةً لزعيم، ولم تكن طاعةٍ وخضوع عن عقيدة وإيمان بمبادئ وبنظم دولة وبنظام مركزي وهي تكره القيود. فوجدوا بوفاة الرسول أنهم في حل من الروابط بدولته.

ــ المرتدين ومدعي النبوة، الذين عدوا النبوة وسيلة للسيادة والزعامة، لذلك كثر مدعي النبوة بين العرب ــ حتى من بعض النساء ــ في الأيام الأخيرة من حياة الرسول ﷺ واستمر واستفحل في عهد أبو بكر.

ـ لا يجب إغفال اليهود الذين حاولوا استغلال الخلاف السابق بين الأوس والخزرج في محاولة لاستعادة نفوذهم في المدينة، وإرجاع مكانتهم السياسية والاقتصادية.

خلافة أبو بكر ١١ ــ ١٣ هـ / ٦٣٢ ــ ٦٣٤م (الصديق):

كانت مبايعة أبي بكر حلاً لأخطر المشكلات بعد وفاة الرسول، وترتب على أبو بكر مسؤولية حماية الدين الإسلامي وقيادة الدولة والمجتمع وبالتالي أن يحكم معتمداً على القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريف، إلى جانب المشورة مع الصحابة، وثم الاجتهاد استناداً إلى الأسس الآنفة الذكر، التي تبلورت من خلالها مصادر التشريع في الدولة العربية الإسلامية.

أعلن أبو بكر بعد مبايعته خطته في العمل، التي تضمنتها خطبته الأولى، إذ أكد على الصدق والتواضع والاستقامة والعدل وفقاً للأخلاق التي أوجدها الإسلام، وأكد على الجهاد، وألزم نفسه بمساعدة الضعفاء. وقد قرن القول بالفعل في خلافته، وكان القدوة لجميع المسلمين، وسار على نهج الرسول الأعظم، مما انعكس إيجاباً على حياة المسلمين، طمأنينة ونجاحاً في تحقيق وإنجاز المهام التي واجهت المجتمع الإسلامي بعد وفاة الرسول ﷺ.

قامت خلافة أبي بكر على أساس من الشورى، ولكنها شورى مقيدة؛ إذ قيدت بأن يكون الخليفة من قريش ومن المهاجرين، مما أدى إلى معارضة واحتجاج البعض من المسلمين، على تزعم قريش، وسبب هذا جدلاً ونقاشاً، كان وراء كثير من الأحداث في التاريخ الإسلامي، وكان من العوامل التي أدت إلى الردة.

إنفاذ جيش أسامة بن زيد وبعثه:

كان الرسول قد أمر بتجهيز جيش بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة إلى بلاد الشام حيث الدولة البيزنطية، وأذنابها من الغساسنة، وقبل إنفاذ الجيش انتقل الرسول إلى جوار ربه موصياً بإتمام بعث أسامة من بعده،

كانت أولى أوامر أبو بكر إتمام بعث أسامة وإرساله للمهمة التي كان الرسول قد كلفه بها، إلى البلقاء وجنوب بلاد الشام لمهاجمة الروم بهدف تأمين حدود الدولة من الشمال، نظراً لأهمية موقع بلاد الشام الجغرافي الذي يفيد الدعوة كون بلاد الشام على مقربة من الجزيرة العربية وعلى شواطئ البحر المتوسط؛ على الرغم من نصح الصحابة له بتأجيل ذلك، لكنه صمم على إرساله إمتثالاً لأوامر الرسول ﷺ الذي وجد في إرسال هذا الجيش العديد من الفوائد على الصعيد الاستراتيجي والسياسي والديني والنفسي، ونظراً للتأثر بسبب استشهاد زيد ابن حارثه وأصحابة في مؤتة، قاصداً بهذا توجيه رسالة إلى العالم مفادها أن هناك دولة حديثة العهد، قامت بعون الله لرفع كلمته، وهي دولة ذات كيان وشأن؛ لها من القوة والهيبة ما يمكنها من قض مضاجع أعدائها.

لهذا قصد أسامة جنوب بلاد الشام وأدب قبائل قضاعة التي ارتدت، وانتصر على جموع القبائل هناك، وعاد بالغنائم بعد ٤٠ يوماً. لقد حقق جيش أسامة الأهداف التي أرسل لتحقيقها:

ـ إذ شعر أعداء الإسلام بقوة وهيبة دولة الإسلام، فأصبحت مرهوبة الجانب من أعدائها الأقوياء قبل الضعفاء، فلا يتجرأ أحد عليها أو على مكتسباتها أو مقدساتها.

ـ أكدت على الإلتزام من قبل الحكام بعد رسول الله بتنفيذ أوامر النبي والسير على نهجه وسنته مهما كانت الظروف، حيث قال أبو بكر: " والذي نفس أبي بكر بيده، لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته ".

ـ الانتقام من قتلة زيد بن حارثة؛ وإثارة الخوف في قلوب المرتدين، ورفعت من مكانة المسلمين .

ـ كانت أول حملة عسكرية خارج الجزيرة وضد عدو خارجي.

ـ هي حملة استطلاع للتعرف على أعداء الدولة العربية الإسلامية ووضع حد لهم.

ـ تعد بداية الفتوحات وأول احتكاك مع الروم.

حركة الردة وموقف أبي بكر منها:

ادعى بعض زعماء القبائل النبوة في أواخر أيام الرسول، متخذينها وسيلة للزعامة، ولم يكد يفرغ المسلمون من الإختلاف على من يولونه الخلافة حتى منيت الأمة العربية الإسلامية باضطرابات جسيمة تمثلت بالردة، التي انتشرت بعد وفاته حتى لم يبقى متمسكا بالدين إلا قريش في مكة وثقيف في الطائف وآخرون قليلون جداً؛ ذلك أن القبائل العربية كبر عليها أن تكون خاضعة لسيادة قريش لاعتقادهم أنها سلبتهم حريتهم وأدخلتهم تحت سلطانها بحكم الدين، فتطلعوا إلى استرداد ما كانوا يتمتعون به من استقلال ذاتي، ويمكن إرجاع حركة الارتداد للأسباب التالية:

١. بعض الأشخاص والقبائل آمنوا بالرسول لحسن أخلاقه وتصرفاته ومواقفه النبيلة وبعد وفاته لم يروا هذه الصفات بأحد؛ وبالتالي رفضوا الموالاة أو الإنصياع لشخص غيره.

٢. أسباب سياسية اجتماعية: وتظهر في عودة العصبية القبلية والرغبة في الحياة الحرة السابقة، التي لا تخضع فيها القبيلة إلا لذاتها، وسلطة المدينة غدت شوكة في جنب القبائل تقض مضاجعها، ولا سيما أنها تمثل (المدينة) سلطة قبيلة قريش، ويتضح هذا في قول الشاعر:

أطعنا رسول الله ما كان فينا ... فيا لعباد الله ما لأبي بـــكر

أيورثها بكراً إذا مات بعده ... وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

وخصوصاً أن أبو بكر اختير بالشورى المقيدة (وهي أن الخليفة من قريش ومن المهاجرين).

يضاف إلى هذا إثارة الغرم للقبائل العربية ولا سيما في البحرين ضد حكومة المدينة والدين الإسلامي. فهي ثورة على الفئة المسلمة الجديدة التي عهد لها الرسول بالقيادة من العرب والغرباء والأبناء، الذين تجمعهم وحدة العقيدة والإيمان.

٣. أسباب فكرية عقائدية: تتضح في عدم تمكن الإسلام في نفوس المرتدين، إذ أن بعضهم لم يمر على إسلامهم مدة كافية ولم يترسخ الإيمان في قلوبهم، ومعرفتهم بفكره لا زالت ضعيفة إذ لم يتح لها الوقت الكافي للتعرف على قيمه؛ هذا بالإضافة إلى اعتيادها ديانتها السابقة التي درجت عليها.

٤. أسباب اقتصادية: عدم الرغبة بإعطاء المدينة أهمية كبرى، فانسحب قسم كبير كي لا تتضرر مصالحهم المادية والاقتصادية. وقد رفضت بعض القبائل دفع الزكاة لأنها وجدت فيها عبئاً ثقيلاً ونوع من الإتاوة وهي تكره ذلك.

٥. أسباب شخصية: تتضح في لهفة عدد من الأفراد الأقوياء في قبائلهم على تزعم العرب إسوة بالرسول الكريم متخذين إدعاء النبوة وسيلة توصلهم إلى غرضهم.

إذاً إن حالة الذعر والفوضى بعد وفاة الرسول ﷺ وانتشار الدسائس والفتن التي كانت تحركها الدول الكبرى طمعاً بالمشرق العربي وأصقاع الدولة العربية الإسلامية؛ لإضعاف بنيتها وتفتيتها لتسهيل السيطرة عليها، إلى جانب رفض بعض القبائل والمرتدين الخضوع للسلطة المركزية في المدينة لأنها تأنف من الالتزام بسلطة واحدة، أو التقيد بقوانين ثابتة؛ ظهر ردة على شكل انضمام لمدعي النبوة أو امتناع عن دفع الزكاة، أو تغيير في تنفيذ الشرائع والطقوس الدينية.

الردة كانت على نوعين:

ـ ردة عامة عن الإسلام بشكل عام.

ـ ردة خاصة عن بعض الأركان والطقوس الخاصة بالعبادة..

أهم المرتدين:

. الأسود العنسي في اليمن، مسيلمة الكذاب زعيم بني حنيفة في اليمامة، طليحة الأسدي في نجد، سجاح بنت الحارث التميمية... إلخ.

كان موقف أبو بكر صارماً تجاه الردة واجتهد مؤكداً وحدة الكلمة، وضرب العصبية القبلية، وإحلال الوحدة الدينية والقومية، وابتدأ حرب المرتدين جميعاً بعد أن حاول إعادتهم للدين الإسلامي عن طريق المراسلة، لكن عندما وجد أن محاولته لم تنجح؛ وجه إليهم الجيوش

التي أعادتهم إلى صفوف الإسلام، حيث رتب جيوشاً أو كتائب عديدة وعقد على كل منها لواء لأمير اختاره من أصحاب رسول الله، وعين لكل منهم الوجهة التي يسير إليها، وقد بلغ عدد الجيوش التي عقدت ألويتها إحدى عشر لواء وهذه أسماء القواد ووجهاتهم:

- خالد بن الوليد: لطليحة المتنبي وجماعته ثم ديار بني تميم.
- عكرمة بن أبي جهل: إلى مسيلمة الكذاب واليمامة.
- شرحبيل بن حسنة: إلى مسيلمة الكذاب واليمامة أيضاً.
- المهاجر بن أمية: إلى اليمن وحضرموت.
- خالد بن سعيد بن العاص: إلى مشارف الشام.
- عمرو بن العاص: إلى ديار قضاعة.
- حذيفة بن محصن: إلى عمان.
- سويد بن مقرن المزني: إلى تهامة اليمن.
- طريف بن حاجز: إلى ديار بني سليم وهوازن.
- العلاء بن الحضرمي: إلى البحرين.
- عرفجة بن هرثمة البارقي: إلى مهرة.

وقد كتب الخليفة عهداً فيه وصاياه وتعليماته الحكيمة، التي تدل على ما كان يتحلى به من سعة إدراك، وبعد نظر وصواب رأي، وسلم لكل قائد نسخة منه، وكتب منشوراً عاماً موجهاً للناس في مختلف الأنحاء فيه إنذار وتبشير يدعوهم فيه إلى التمسك بالإسلام وتقوى الله واجتناب الفتنة، ويحذرهم بعواقب الفساد في الدنيا والآخرة.

كان الفضل في القضاء على الردة، للفريق الذي بقي مخلصاً صادقاً في إسلامه وولائه في مختلف أنحاء الجزيرة، وللخوف والندم والترغيب والترهيب والدعوة أثر في إنجلاء الأزمة في أماكن كثيرة دونما حاجة إلى جهد حربي، إذ لم يُفعّل العمل العسكري إلا في أماكن قليلة.

وبالنتيجة كانت عودة المرتدين على اختلاف صور الارتداد إلى الإسلام وطاعة السلطان الإسلامي وتثبيت دعائمه في الجزيرة العربية.

خلافة عمر بن الخطاب ١٣ ــ ٢٣ هـ/ ٦٣٤ ــ ٦٤٣م (الفاروق):

قبل انتقال أبو بكر إلى جوار ربه، استشار بعض الصحابة واستخلف عمر بن الخطاب بعده بموجب وصية كتبها عثمان بن عفان، وبهذا يكون أول خليفة يقدم على ذلك في التاريخ الإسلامي.

استلم الخلافة بعد أبو بكر بوصية منه، شكلت هذه الوصية بداية تحول في الفكر الإسلامي الذي تطور ليتحول إلى القبول بفكرة الملكية الوراثية.

في عهد عمر بن الخطاب حقق العرب المسلمين نجاحات كبيرة، حيث تم إرساء دعائم الدولة العربية الإسلامية الأولى، إذ أدخل التنظيم الإداري (الدواوين) واستطاع حل كافة المشكلات التي واجهته، مظهراً عبقرية تنظيمية وقدرة إدارية فائقة؛ معتمداً على روح الإسلام وتشريعاته، فعاش الناس في عهده آمنين.

وقد تمت في عهده الانتصارات العسكرية الكبرى في اليرموك والقادسية والمدائن ونهاوند، حيث كان يشرف بنفسه على خطط المعارك ويوجهها، وكذلك على توقيع معاهدات الصلح ، والعمل على إدارة المناطق المفتوحة و تسوية أمورها المالية والسياسية.

وبسبب مثالية عمر وثوريته الإسلامية، تضايق منه الكثير من الصحابة ورغبوا في الخلاص منه، وكذلك كرهه زعماء الأمم التي تم فتحها وسعوا للتخلص منه أيضاً؛ وفي أواخر ذي الحجة سنة ٢٣ هـ/ ٦٤٣م طعنه فيروز النهاوندي المكنى أبو لؤلؤة .

خلافة عثمان بن عفان ٢٣ ــ ٣٥ هـ/ ٦٤٣ ــ ٦٥٥م (ذي النورين):

أثناء وجوده على فراش الموت يعاني آلام جراحه، بحث مع الفاروق موضوع الخلافة بعده، فرشح عمر رجال الشورى الستة (علي بن أبي طالب، عثمان بن عفان، الزبير بن العوام، طلحة بن عبيد الله، عبد الرحمن بن عوف، سعد بن أبي وقاص)ليتم غختيار واحداً منهم لخلافته؛ وأوصى أن يكون ابنه عبد الله بن عمر معهم بصفة مستشار.

بعد وفاة عمر أسفرت الاجتماعات والمشاورات والمشادات والمنافسات بين علي و عثمان(تنافس هاشمي ــ أموي) عن استخلاف عثمان ، وهو قرشي أموي عرف بالكرم والشجاعة، وقد عمل على حفظ القرآن الكريم في مصحف واحد وعلى قراءة واحدة بلسان قريش.

حدثت في عهده الفتنة الأولى بعد أن أثيرت ضده مطاعن كثيرة، بسبب عجزه عن تحمل أعباء حكم الدولة وحل المشكلات التي اعترضته، فتحكم به أقاربه، وتساهل مع أصحابه، فأنكر أصحابه عليه ذلك، فثار عليه المسلمون ودخلوا عليه داره وقتلوه، ولم تشفع له لا شيخوخته ولا مكانته في الإسلام.

مما أخذه الصحابة على عثمان:

- وقوعه تحت تأثير أقربائه من الأمويين الذين استبدوا بمناصب الدولة ومقدراتها.
- عزله لولاة عمر على الرغم مما امتازوا به من كفاءة وتولية أقربائه من الشباب العديمي الخبرة وحرمان المجتمه من خبرة كبار الصحابة.
- نقمة الأنصار عليه لأنه حرمهم من السلطة والنفوذ.
- إنفاق الأموال بسخاء على أقاربه.

ويذكر المؤرخون أسباب الفتنة والشكوى من عثمان واصفينه : " بالضعف السياسي والإداري، ويؤاخذونه على تصرفات جعلوها سبب الفتنة وهي تقريبه بني أمية، وإثرائه وإثراء أقربائه على حساب مال المسلمين وإحراقه المصاحف، وإسقاط خاتم النبي في بئر أريس، وعدم اكتراثه بنصائح المخلصين والأتقياء، كأبي ذر الغفاري"، بالإضافة إلى اتباعه سياسة مالية خالف بها من سبقه من الخلفاء خصوصاً عمر، واجتهاده في أمور اجتماعية واقتصادية أدت إلى زيادة النقمة عليه، واستخدام العنف ضده.

بدأت أصوات الاحتجاجات توجه ضد عثمان وسياسة ولاته في الأمصار، ولكن الولاة لم يكونوا على مستوى المسؤلية والإخلاص لعثمان ولم يساعدوه في حل الأزمة، ما أدى إلى خروج وفودهم الثائرة الناقمة من مصر والكوفة والبصرة ٣٥ هـ/ ٦٥٥م متظاهرين بأنهم يريدون الحج، ولم تجدي أية احتياطات أو إجراءات في الحيلولة بينهم وبين الخليفة والوصول إليه وتشديد الحصار عليه، وفي ذات الوقت لم يرضخ الخليفة لمطالبهم بخلع نفسه والتنازل عن الخلافة، حينئذ اقتحموا عليه داره وقتلوه.

إن جذور هذه الأزمة بعيدة وعميقة، إذ سبقتها مرحلة من التذمر والشكوى للعديد من الأسباب؛ التي يعود بعضها للعصر الجاهلي وعدم الوفاق بين بني هاشم وبنو أمية، وحدوث الخلل بدأ من اجتماع السقيفة، وما تلاه من تطورات إجتماعية بعد الفتوحات، إذ دخلت المجتمع شعوب وقبائل متنوعة ومختلفة من حيث التفكير، ثم ما كان من تعديلات أدخلت على السياسة المالية ونظام العطاء في عهد الخليفة عمر.

وقد أرجعت العديد من الدراسات أسباب حدوث الأزمة إلى عوامل مختلفة تعود في معظمها إلى الحقبة التي سبقت عهد عثمان.

خلافة علي بن أبي طالب ٣٥ ـ ٤٠ هـ/ ٦٥٥ ـ ٦٦١م:

اجتمع زعماء الصحابة من المهاجرين والأنصار وانتخبوا علي وبايعوه خليفة، فقبل بعد تردد نظراً لخطورة الموقف في ظل الواقع الجديد.

اتصف علي بمكانته العالية وبمميزات كثيرة: فهو قرشي وابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة، وأول من آمن بالرسول من الرجال، هو أخوه بالتآخي ومن أهل بيته(من آل البيت)، اشتهر بالشجاعة والعلم، وإتقان اللغة العربية، والقضاء، وكان الخلفاء يستعينون به في الملمات، وعلى الرغم من المشكلات التي حدثت في عهده فقد عمل على إدارة الدولة بحزم واستقامة، وحافظ على أموال بيت المال، ونشر العدل في المجتمع وتابع الفتوحات.

وفي عهده حصلت الفتنة الثانية: خروج كل من طلحة والزبير والسيدة عائشة وانقلابهم على علي بعد توليه الخلافة وخوض معركة الجمل ضده في البصرة، هذه المعركة التي استغلها والي الشام معاوية بن أبي سفيان، وأعلن رفض القبول ببيعة علي، معلناً المطالبة بدم

عثمان كونه قريبه الأحق بالثأر له، مما أدى إلى نشوب حرب كبيرة هي معركة صفين بين علي ومعاوية التي انتهت بالتحكيم لصالح معاوية، وخروج جماعة من جنود علي عليه ــ عرفوا بالخوارج ــ بسبب قبوله بالتحكيم، وأنهيت حياة علي مطعوناً بيد الخارجيّ عبد الرحمن بن ملجم المرادي.

لقد وضعت هذه الطعنة بداية النهاية للعصر الراشدي، الذي يعد من أهم العصور الإسلامية في بناء الفرد المسلم و وضع الأسس السليمة للمجتمع العربي الإسلامي.

الفتوحات العربية الإسلامية

بعد أن تم الانتهاء من القضاء على الردة، وأعيدت الوحدة إلى الجزيرة العربية، وجه أبو بكر اهتمامه لفتح الأقاليم العربية الخاضعة لسيطرة الفرس والبيزنطيين؛ بهدف رئيسي يتمثل بنشر الإسلام بين العرب في العراق والشام ومصر. بناء على ذلك بدأت حركة الفتوحات التي تعد من أهم الأحداث في تاريخ الأمة العربية الإسلامية.

أسباب الفتوحات العربية الإسلامية:

تعددت وتنوعت العوامل التي سببت الفتوحات؛ منها ما يتعلق بالوضع الداخلي للدولة العربية الإسلامية الناشئة، ومنها ما له علاقة بدول الجوار المعادية لها التي كانت وجهة الفتح، وقد تراوحت بين الأسباب الدينية، والسياسية الاستراتيجية، العسكرية، الاجتماعية، والاقتصادية. ويمكن إجمال هذه الأسباب بما يلي:

١. الرغبة في نشر الإسلام وإعلاء كلمة الله تعالى، بناء على تطور الأحداث وانتصارات الرسول ﷺ وسيراً على نهجه، حيث جاءت استكمالاً لأعماله ﷺ إذ كان قد بدأ العمليات العسكرية عندما دانت له الجزيرة العربية، وقد وجه قبل وفاته جيشاً إلى تخوم الشام ــ غزوة مؤتة ــ ولكن مهمته لم تكتمل؛ بل أكملها الخلفاء من بعده.
٢. تشجيع الخلفاء على الجهاد الذي يعد إحدى شرائع الإسلام، وعلى التضحية في سبيل الله كسباً لحسن الجزاء في الآخرة، إذ قدموا كل الدعم والمعونة للحملات العسكرية، فالإسلام دين عالمي، ورسالته غير مقصورة على بلاد العرب فقط.
٣. الفراغ من البناء الداخلي للدولة العربية الإسلامية، وشعورهم بقوتهم بعد توحيد الجزيرة العربية، والرغبة في القضاء على هيمنة الكفار، فقرروا الاتجاه نحو الخارج للعمل على حماية دولتهم الناشئة تفادياً لاستهدافها من القوى المجاورة والمعادية، والرغبة في توسيع حدودها وبسط سيطرتها، وحماية الشعارات والأهداف الجديدة التي تنادي بها.

٤. القضاء على دولتي الروم والفرس، إذ وصلت الدولتان إلى درجة عالية من القوة وانتشار الفساد والظلم والعبودية، فكان في القضاء عليها خلاص للشعوب المستضعفة الواقعة تحت حكمها.

٥. وجود قبائل عربية يمنية في المناطق التي توجه إليها الفتح، والرغبة في تحريرها من الاستعباد والتبعية للغير من أجل الارتقاء بها، فهم عرب يتكلمون لهجات مختلفة، فالفتوحات في حقيقتها فتوحات لبلاد عربية.

٦. النزاع القائم بين العرب والقوى المجاورة، التي من بينها بعض القبائل العربية وخاصة الغساسنة.

٧. استنجاد بعض القبائل لتخليصهم من الصراعات الداخلية.

٨. توفر المهارة العسكرية، والقادة المخلصين الأذكياء لدى المسلمين؛ إضافة إلى قوة و خبرة الجيش الذي تشكل بعد حروب الردة، حيث نتج عنها زيادة الخبرة القتالية لدى المقاتلين إذ تبلورت براعة وخبرة هذا الجيش، وتمكنه من فنون القتال، مما أوجد آلة عسكرية قوية، خاصة بعد انضمام المرتدين ــ بعد أن عادوا عن ارتدادهم ــ للمشاركة في المعارك للحاجة إليهم في عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب، وأمكن الاستفادة منها في الفتح بشكل فعال. فقد عززت هذه الحروب من ثقة الجيش الإسلامي والقيادات العسكرية بأنفسهم، وظهر حماسهم للجهاد، ولذلك اتجهت أنظارهم وجهودهم للفتح في كل من العراق والشام ومصر.

٩. جمع العرب المسلمين وتوحيدهم بعد حروب الردة والفتن التي قامت هنا وهناك، والعمل على صرف حمية العرب ــ حتى لا يقاتل بعضهم بعضاً في نزاعات داخلية في قلب الجزيرة العربية ــ وتفريغ روح القتال لديهم بتحويل القتال إلى قتال عربي أجنبي ولم شمل السيوف والصفوف العربية لمواجهة أعدائهم من فرس وروم بيزنطيين.

١٠. السيطرة على الأقاليم المجاورة للدولة العربية الإسلامية، التي تمثل امتداداً جغرافياً وطبيعياً وبشرياً، لأراضي الجزيرة العربية وتتصل اتصالاً وثيقاً معها في كل من العراق وبلاد الشام؛ فعبر العصور كانت ولا تزال هناك ضرورات تاريخية تجمع بلاد الشام والعراق ومصر والجزيرة العربية.

١١. وفق رأي الكثير من المستشرقين والباحثين، كانت العوامل الاقتصادية هي الأسباب المباشرة للفتوحات فقد قام الخلفاء بترغيب القادة والجنود، بالغنائم التي سوف يغنمونها من الأعداء، سواء كانت مغانم مادية أو معنوية، مما دفع المقاتل المسلم إلى القتال إما رغبة منه بالدنيا أو رغبة بالآخرة.

١٢.تعميق العلاقات التجارية عن طريق الاكثارمن القوافل، وبالتالي الحصول على مكاسب مادية، أن كان من التجارة أو من الغنائم التي يمكن الحصول عليها، لتأمين موارد للدولة الإسلامية للنهوض باقتصادها.

وهكذا اندفع العرب المسلمون فاتحين، فوصلوا إلى جنوب فرنسا وإلى حدود الصين، ودانت لهم أكبر الممالك والدول وعلى رأسها الأكاسرة الساسانيين والروم البيزنطيين.

أحداث الفتوحات في العصر الراشدي :

بدأت الفتوحات في عهد الخليفة أبو بكر وكانت وجهتها أولاً إلى العراق، ثم إلى الشام؛ إذ حدثت معارك عسكرية كبيرة ومتعددة، مثل البعض منها مفاصل أساسية في التاريخ العربي الإسلامي، بنتيجتها انتهت الإمبراطورية الساسانية، واندحرت الإمبراطورية البيزنطية باتجاه آسية الصغرى، واستمرت في صراع طويل الأمد مع الراشدين ومن بعدهم الأمويين، ثم العباسيين إلى أن سقطت عاصمتهم القسطنطينية في يد العثمانيين.

١. الأعمال العسكرية على الجبهة العراقية:

من الطبيعي أن يسير الخلفاء على خط الرسول بتنفيذ سياسة الجهاد لنشر الدعوة الإسلامية، لكن أحداث الردة أخرت البدء بعمليات الفتح، ليكلف أبو بكر قادة حروب الردة المنتصرين بمهمة التوجه خارج الجزيرة، وقد مرّ القتال على هذه الجبهة بخمسة مراحل:

ـ المرحلة الأولى: الحرب في العراق الجنوبي وتنتهي بانتهاء معركة الفراض.

ـ المرحلة الثانية: تبدأ مع توجه خالد إلى الشام وتولي القيادة من قبل المثنى بن حارثة الشيباني، وتنتهي بانتصار سعد بن أبي وقاص في القادسية ١٥ محرم ١٥ هـ/ ٦٣٦م.

ـ المرحلة الثالثة: تبدأ ما بعد القادسية وتستمر إلى فتح المدائن وانهيار العرش الفارسي ١٤صفر ١٦ هـ/ آذار ٦٣٧م.

ـ المرحلة الرابعة: بدأت بمعركة جلولاء ذي القعدة ١٦ هـ/ ت٢ ٦٣٧م، إلى أن استخلف سعد بعبد الله بن عبد الله بن عتبان.

ـ المرحلة الخامسة: وفيها وضعت ثلاث قيادات: في الكوفة عبد الله بن عبد الله بن عتبان، في البصرة أبو موسى الأشعري، وقيادة الجيوش المواجهة للفرس في نهاوند بقيادة النعمان بن مقرن المازني. وتستمر حتى اغتيال الخليفة عمر بن الخطاب ٢٢ هـ/ ٦٤٣م، ليكمل بعده الخليفة عثمان بن عفان.

تجمع المصادر على أن عمليات الفتح بدأت حين سمح أبو بكر للمثنى بن حارثة الشيباني قيادة قومه للإغارة على الفرس في سواد العراق؛ إذ استمرت عملياته إلى أن قدم خالد بن الوليد في المحرم سنة ١٢هـ/ ٦٣٣م وباشر وقائعه العسكرية بمعركة ذات السلاسل في الكاظمة ضد عامل كسرى في الأُبلّة هرمز، ثم كان نصر خالد في معركة المذار، وبعدها

تتالت المعارك فحصلت معركة الولجة، وفتحت أليس وأمغيشيا، وبعدها حاصر الحيرة وفتحها على أن تدفع الجزية، ثم توجه إلى الأنبار، ومنها إلى عين التمر وغنم في هذه المعارك الكثير من الغنائم التي أرسل منها الخمس إلى بيت المال على قاعدة تقسيم الغنائم. ثم كانت معارك دومة الجندل والحصيد، ثم وقائع الخنافس والثَّنيّ والزُّمَيل، وبعد ذلك توجه خالد إلى الفراض على تخوم الشام والعراق والجزيرة شرقي الفرات، إذ جرت عندها معركة حامية الوطيس، ذلك أن الروم والفرس استشعروا الخطر من حروب المسلمين فتغاضوا عن خلافاتهم وجمعوا جموعهم قوات فارسية ورومية تساندها بعض القبائل العربية كتغلب وإياد والنِّمر، فاقتتلوا قتالاً ضارياً انتصر بنتيجته العرب المسلمون وهزموا الأحلاف في ذي القعدة ١٢ هـ/ ٦٣٣م، فخلال العام ونصف من القتال دان لهم معظم العراق حرباً وصلحاً، في هذه الأثناء كانت الأعمال العسكرية قد بدأت على جبهة بلاد الشام، فأمر أبو بكر خالداً بالتوجه إليها ، فغادر خالد العراق مصطحباً معه نصف ما عنده من المقاتلة وتاركاً الجبهة للمثنى الذي استمر في مقاومة الفرس إلى أن ندب أبو عبيد بن مسعود الثقفي، الذي كانت أولى معاركه معركة النمارق لتتلوها معارك السقاطية في كسكر، وباق ياثا، ثم حدثت معركة الجسر في منطقة قس الناطف على نهر الفرات أواخر رمضان ١٣ هـ/ ٣٤ ـ ٦٣٥م التي خسر فيها المسلمون خسارة فادحة للمسلمين أمام القائد بهمن جاذويه، فقد قتل أبو عبيد وكان تأثيرها سلبياً على معنويات الجند، لكن المثنى الذي جرح فيها، جمع صفوفه وتمكن من الانتقام في معركة البويب رمضان ١٤ هـ/ ٦٣٥م بين النجف وكربلاء ؛ إذ ترتب على النصر في البويب نتائج مهمة خصوصاً ما يتعلق بإزالة الأثر النفسي السلبي لمعركة الجسر والسيطرة على السواد ومنطقة ما بين الفرات ودجلة، وعلى ما يبدو أنه في هذه المرحلة انتقل الثقل العسكري إلى جبهة الشام، وأن الساسانيين استشعروا خطر الواقع الذي آلت إليه الأمور في العراق، فعملوا على تجاوز مشكلاتهم الداخلية، وفي مقدمتها وراثة العرش بعد موت أزدشير فاختاروا للحكم يزدجرد الذي باشر بالعمل على إثارة المناطق التي سيطر عليها العرب المسلمون في الحيرة والأنبار والأبلة للإنتقاض عليهم، وأعلن النفير العام ووزع الفرق حيث سيطر العرب المسلمين فانتفضت ضدهم، واضطروا للخروج من الأراضي التي فتحت، واستقروا على التخوم العربية الفارسية.

كان موقف الخليفة عمر حازماً، عندما علم بخسارة الجسر، فأعلن النفير العام وكتب للمثنى والمقاتلين يثبتهم في مواقعهم وفكر في قيادة المجاهدين بنفسه، لكنه أثني عن ذلك وانتدب سعد بن أبي وقاص الذي اتفق معه على خطة القتال. توفي المثنى متأثراً بجراحه قبل وصول سعد، الذي باشر فور وصوله بتجميع وتعبئة وتنظيم القوات العربية الإسلامية واستقر في القادسية بالقرب من الكوفة.

معركة القادسية أوائل المحرم ١٥ هـ/ ٦٣٦م:

تعد القادسية التي عرفت بالفتح بـ " الفتح الأعظم "معركة فاصلة في تاريخ العرب والمسلمين، فهي التي قررت مصير العراق؛ لابل مصير العرب وتأثيرهم في التاريخ العالمي، فقد حشد لها الفرس ١٢٠ ألف مقاتل بقيادة القائد العام رستم وكان معه كبار القادة والأمراء الفرس مصطحبين معهم الفيلة، في الوقت الذي لم يزيد عدد جيش سعد عن ٣٦ ألفاً ـ بعد أن انضم إليه ٧ آلاف من قبائل العراق ، بالإضافة إلى جيش المثنى، والنجدة التي أتته من الشام ـ وكان يضم ١٤٠٠ من الصحابة، منهم ٩٩ بدرياً.

عسكر الجيشان في سهل القادسية جنوب غرب الحيرة، وكعادة المسلمين أرسل سعد يدعو الفرس للإسلام، فأصر رستم على القتال، ولكنه أخذ يماطل في بدء القتال عسى أن يضجر المسلمون، وكان سعد يستطلع أحوال الفرس، ثم حصل القتال الذي استمر أربعة أيام ـ أرماث، أغواث، عماس، والقادسية الذي انتهى فيه القتال وتحقق فيه النصر المؤزر للعرب المسلمين، إذ قتل رستم وتشتت جيشه وغنم المسلمون غنائم كثيرة، وأرسلت البشائر الخليفة الذي طلب من سعد أن يتوقف ويتخذ للمسلمين دار هجرة، فأسس سعد الكوفة، وبنى جامعاً، ووضع خطط المنازل.

لقد رفع هذا النصر معنويات المسلمين، وسحق الأمبراطورية الفارسية، إذ تمت ملاحقة فلول الفرس وفتح المدائن. أما الخسائر فكانت فادحة من الطرفين إذ خسر الفرس حوالي الثلثين من جيشهم بينما كانت خسارة العرب حوالي الثلث، لكنهم غنموا من الذخائر ما لا حصر له.

انفتحت أبواب بلاد فارس أمام العرب المسلمين بعد القادسية، وتمكنوا من دخول عاصمتهم المدائن (طيسفون) صفر ١٦ هـ/ ٦٣٧م، ثم انتصروا على الفرس في جلولاء ذي القعدة ١٦ هـ/ ٦٣٧م، على نهر ديالي ويذكر أن الغنائم فيها فاقت ما تم تحصيله في القادسية، وسيطر العرب على المناطق المحيطة بجلولاء في حلوان، وانسحب يزدجرد إلى فارس، وتقدم العرب المسلمين وسيطروا على حلوان وقرميسين ثم حدثت معركة نهاوند (فتح الفتوح) جنوبي همذان سنة ٢١ هـ/ ٦٤١م، وقد استشهد النعمان بن المقرن قائد الجيش، وتولى القيادة حذيفة بن اليمان، وفتح النصر الذي تحقق فيها، الطريق إلى نواحي إيران الداخلية، فقد سقطت المقاومة الفارسية المنظمة وتشتت، وتقدم المنتصرون وتتابع سقوط مدن أصفهان، إصطخر، ومدن خراسان في يد الأحنف بن قيس، إلى أن قتل يزدجرد بعد سلسلة من الهزائم في مرو ٣١ هـ/ ٦٥١م، وبمقتله انتهت المقاومة الفارسية، واختفت الأسرة الساسانية عن عرش إيران، وبلغ العرب المسلمون في اندفاعهم متتبعين يزدجرد إلى حدود نهر جيحون، حيث جاءتهم أوامر الخليفة عمر بالتوقف. وبالتزامن مع ملاحقة يزدجرد، كان هناك قوة أخرى تتقدم في الجنوب في سواحل كرمان باتجاه مكران.

الفتوحات على جبهة بلاد الشام:

تألفت بلاد الشام من الشريط الساحلي على البحر المتوسط، والمنطقة الداخلية الغنية بالزراعة، ومنطقة البادية. حيث سكن العرب في المناطق الزراعية، وانتشر البداة الرحل في البادية، أما المدن فقد سيطر عليها المتحدثون بالإغريقية. إلى الشمال من نهر الأردن استقرت الحكومات المحلية البيزنطية.

كانت القبائل العربية تتنقل بحرية عبر ديار بعضها البعض، لكن الامبراطورية الساسانية وبيزنطة اعتمدتا على العرب (الغساسنة، المناذرة) لمراقبة البادية، فقامت بدور حمايتهما من هجوم العرب.

كان بعث أسامة بن زيد أول عمل عسكري على هذه الجبهة، وبعد الانتصارات على الجبهة العراقية وجه أبو بكر اهتمامه إلى الشام وسير إليها أربعة جيوش:

- لواء يزيد بن أبي سفيان ووجهته إلى دمشق
- لواء شرحبيل بن حسنة إلى البلقاء
- لواء أبي عبيدة بن الجراح إلى حمص
- عمرو بن العاص إلى فلسطين
- لواء عكرمة بن أبي جهل كردِيف لهم جميعاً.

تركز نشاط هذه الجيوش الأساسي في المناطق التي كان أكثرية سكانها من العرب بعيداً عن المدن الرئيسية؛ وهذا يفسر عدم اهتمام المصادر اليونانية والسريانية بهذه الحروب في بداياتها لأنها لم تشكل مصدر تهديد فعلي .

بدأت المرحلة العسكرية المهمة بعد أن طلب الخليفة أبو بكر من خالد بن الوليد تَرْك العراق والتوجه إلى بلاد الشام، حيث وصلها خلال خمسة أيام، وشارك في فتح بصرى ثم توجه جنوباً ليشارك في معركة أجنادين ١٣ هـ/ ٦٣٤م التي انتصر فيها العرب، وأصبح عليهم مواجهة الخطط الجديدة للقتال مع البيزنطيين؛ فقام خالد بتوحيد القوات المسلحة تحت قيادته، وعبأ الجيش على طريقة الكراديس، ليتم الصدام في اليرموك، حيث انتصر المسلمون نصراً مؤزراً، وغنموا الكثير من المغانم المادية.

بعد معركة اليرموك توجه المسلمون إلى دمشق وحاصروها إلى أن تم فتحها ١٤ هـ/ ٦٣٥م. بعد فتح دمشق توجه خالد وأبو عبيدة بن الجراح إلى حمص والشمال؛ إذ سقطت حماة وشيزر وقنسرين وحلب وأنطاكية، وتوجه الجيش شرقاً إلى الجزيرة الفراتية التي صالح أهلها المسلمين على أن يدفعوا الجزية ، فقد كانت اليرموك المفتاح الذي سلمت به بلاد الشام .

العرب المسلمين في وضع صعب ما دعاهم للمطالبة بإعادة عمرو نظراً لمعرفته بأحوال مصر، فكلف عمرو مرة ثانية بإدارة مصر وتمكن من الانتصار على الروم البيزنطيين ودحرهم وطردهم من الإسكندرية وقتل قائد جيشهم، التي صالح أهلها. بعد ذلك سلم البلاد لواليها ابن أبي السرح الذي استمر فيها طوال خلافة عثمان، حيث قام بعدة غزوات في إفريقية (تونس الحالية) منها غزوة ذات الصواري سنة ٣٢هـ/ ٦٤٧م التي قتل فيها ملك الروم جرجير (غريغوري).

هذه الحروب أكسبتهم القوة والمنعة والهيبة في نفوس أعدائهم بالإضافة إلى الخبرة العسكرية ومعرفة طبيعة الدفاعات البيزنطية في إفريقية، وكذلك أقنعتهم بأهمية هذه المنطقة بالنسبة لهم وضرورة السيطرة عليها في المستقبل حيث ستتم متابعة الفتوحات في العصر الأموي.

العوامل التي ساعدت العرب المسلمين على إنجاز الفتوحات:

ـ لم يكن الفتح عملية مفاجئة فقد كان العرب يسكنون العراق والشام ومصر منذ الألف الرابعة قبل الميلاد، فهي جزء من الأمة العربية على الرغم من هيمنة الفرس و الروم البيزنطيين عليها.

ـ الضعف الذي كانت تعانية إمبراطوريتي الفرس والروم البيزنطيين.

ـ مساندة العرب للفاتحين المسلمين وانحيازهم لهم وتقديم يد العون لهم في عمليات الفتح.

ـ قوة العرب المسلمين الفاتحين واندفاعهم وحسن تنظيمهم، فقد كانت قوة العقيدة التي آمنوا بها إلى جانب القوة التي تمتعوا بها من أهم العوامل التي ساعدت على إنجاز الفتوحات العربية الإسلامية.

نتائج وآثار الفتوحات العربية الإسلامية:

ترتب على الفتوحات نتائج غاية في الأهمية على كافة الصعد (الدينية، السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية، والفكرية الثقافية:

١ ـ نشر الإسلام والرسالة المحمدية.

٢ ـ اوجدت قيادة عالمية موحدة؛ فقد وحدت العرب ونهضت بهم وأدخلتهم حركة التاريخ العالمي، وأدرك الروم والفرس أن العرب المسلمين قوة يستهان بها.

٣ ـ القضاء على أعظم دولتين (الفرس، البيزنطيين) وتغيير المصور العالمي بتحويل البحر المتوسط إلى بحر عربي بعد أن كان يعرف ببحر الروم.

٤ ـ استقرار العرب في معسكرات خاصة، والتمازج الحضاري الذي تحصل لاحقاً.

٥ ـ تأسيس القواعد الاجتماعية الجديدة، وبداية ظهور المدن، والاستقرار وإنهاء الحياة الرعوية المتنقلة، والتخفيف من حدة العصبية القبلية.

في العام ١٧ هـ/ ٦٣٨م تم فتح القدس وبعد سنتين استسلمت قيسارية على الرغم من كونها مدينة ساحلية وتتلقى إمداداتها من الروم البيزنطيين من البحر. وهكذا يتبين أنه قد تم فتح بلاد الشام بكاملها في عهد الفاروق رضي الله عنه.

فتح مصر:

بعد فتح دمشق اقتضت الضرورات الأمنية تأمن بلاد الشام من جهة الجنوب (منذ أقدم العصور البلدين مرتبطين تاريخياً ويقعان على طريق التجارة الدولية ـ طريق الحرير ـ بين الشرق والغرب؛ إذ لم تخفى أهمية مصر الاقتصادية أيضاً.

كان وضع البيزنطيين في مصر ضعيفاً، وينقصه الانسجام وتسيطر عليه المنازعات.

اتجه عمرو ابن العاص إلى مصر من قيسارية ١٨ هـ/ ٦٣٩م وتقدم إلى العريش ثم إلى الفرما وفي أم دنين نشب قتال مع البيزنطيين عند حصن بابيلون، ما جعل عمرو يستنجد بالخليفة، الذي أرسل له الإمدادات فحاصر العرب المسلمون الحصن بضعة أشهر ٢٠ هـ/ ٦٤٠م فتضايق المقوقس واضطر لطلب الصلح، إذ تم توقيع معاهدة الصلح مع عمرو الذي ضمن الأمان للمصريين على أنفسهم وأموالهم، وضمن المقوقس الجسور وضيافة المسلمين ودفع الجزية، أما الأراضي فقد تركت بأيدي أصحابها على أن يدفعوا عنها الخراج.

ثم بدأت المرحلة الثانية وهي فتح الإسكندرية لتتابع الفتوحات في شمال إفريقية وفي النوبة.

ترافق فتح الإسكندرية ذات المناعة الكبيرة مع أوضاع صعبة في بيزنطة، إذ توفي هرقل ووصل إلى الحكم قسطنطين الثاني ، وعانت أيضاً من ثورات الصرب والكروات واللومبارديين، مما أدى إلى خروج الروم البيزنطيين من مصر وخلصت للعرب الفاتحين. وقام عمرو بإشادة مدينة الفسطاط التي غدت معسكراً حربياً أولياً في مصر كما كانت الجابية في الشام والكوفة والبصرة في العراق.

ثم نجح عمرو في فتح برقة وطرابلس الغرب في ليبيا، ووصل إلى الفزان ، وفتح باب زويلة في الجنوب قرب بلاد السودان، وكذلك فتح النوبة جنوبي مصر اكتفى بفرض الضرائب عليها وإرسال السرايا بين حين وآخر، بهدف إشعار السكان المحليين فيها بقوة العرب ولضمان حماية حدوده الجنوبية.

الفتح النهائي لمصر وإنهاء السيطرة البيزنطية فيها تم في ٢٥ هـ/ ٦٤٥م فقد حاول الروم البيزنطيين أكثر من مرة الهجوم على الإسكندرية، الأولى زمن حكم عمرو بن العاص والثانية في عهد خلفه عبد الله بن أبي السرح، إذ استغل الروم البيزنطيين سوء إدارة عبد الله فأرسل الامبراطور قسطنطين الثاني ٢١ ـ ٤٨ هـ/ ٦٤١ ـ ٦٦٨م أسطولاً كبيراً إلى الإسكندرية بهدف إجلاء العرب المسلمين واستولوا عليها، وتوجهوا إلى مصر السفلى وأصبح

٦ ــ انتقال قبائل عربيه بأكملها للاستقرار في المناطق المفتوحة.

٧ ــ صرف حمية العرب وقتال بعضهم البعض إلى قتال الأعداء المحيطين بهم، وتحويل الصراع من عربي عربي (داخلي) إلى صراع خارجي.

٨ ــ السيطرة على الطرق التجارية، وازدياد وارادات بيت المال.

٩ ــ التعرف على شعوب وحضارات جديدة .

١٠ ــ زيادة الاهتمام باللغة العربية؛ التي أصبحت لغة الثقافة والعلم والدين .

١١ ــ إتصال العرب بحضارات الأمم المغلوبة عن طريق الاهتمام بالترجمة، وميلاد حضارة عربية إسلامية جديدة مبتكرة وأصيلة توفرت لها كل مقومات العبقرية والإبداع.

ـ المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر:

١. ـ القرآن الكريم: المكتبة العربية والمكتبة الهاشمية، دمشق، ١٩٧٢م.

٢. ـ الأزرقي، محمد بن عبد الله: أخبار مكة، تح: رشدي الصالح ملحس، دار الأندلس، مدريد، ١٣٨٥هـ.

٣. ـ الحموي، ياقوت: معجم البلدان، دار صادر، ط٢، بيروت، ١٩٩٥م.

٤. ـ الدينوري، ابن قتيبة: المعارف، المختار من التراث ٨٤، اختيار وتقديم منير حديد، مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ٢٠٠٠م.

٥. ـ الرازي، الإمام فخر الدين: الفراسة، تح: مصطفى عاشور. مكتبة القرآن، القاهرة، ١٩٨٧م.

٦. الفاسي، أبي الطيب تقي الدين محمد بن أحمد المكي المالكي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، مطبعة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ١٩٥٦م.

٧. القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، اختيار وتقديم: عبد القادر زكار، سلسلة المختار من التراث ٢٨، منشورات وزارة الثقافة و الإرشاد القومي، دمشق، ١٩٨٣م.

٨. المسعودي، علي بن الحسين: مروج الذهب، دار الأندلس، ط١، بيروت، ١٩٦٥م.

٩. ابن النجار، محمد بن محمود: كتاب الدرة الثمينة في أخبار المدينة، ملحق بكتاب شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، الجزء الثاني، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ١٩٥٦م.

١٠. ابن هشام، أبي محمد عبد الملك: السيرة النبوية، مؤسسة المعارف، طبعة جديدة، بيروت، ٢٠٠٥م.

ثانياً: المراجع:

١. أبو زيد، علي: العيافة، الموسوعة العربية، م١٣، مؤسسة الصالحاني، ط١، دمشق، ٢٠٠٥م.

٢. الأنصاري، فاضل: العبودية، الأهالي، ط١، دمشق، ٢٠٠١.

٣. بويو، مسعود: الجاهلية، الموسوعة العربية، م٧، مؤسسة الصالحاني، ط١، دمشق، ٢٠٠٣م.

٤. بيوتروفسكي، م. ب.: اليمن قبل الإسلام، تر: محمد الشعيبي، دار العودة، ط١، بيروت، ١٩٨٧م.
٥. ت. ج: أسواق العرب، الموسوعة العربية، م٢، مؤسسة الصالحاني، ط١، دمشق، ٢٠٠٠م.
٦. الحمادي، محمد: السعودية، الموسوعة العربية، المجلد العاشر، مؤسسة الصالحاني، ط١، دمشق، ٢٠٠٤م.
٧. حقي، إحسان: علم الفراسة، دار النفائس، ط٢، بيروت، ١٩٨٣م، ص٧.
٨. داوود، أحمد: تاريخ سوريا القديم، دار الصفدي، ط٣، دمشق، ٢٠٠٣م.
٩. زكار، سهيل؛ خربوطلي، شكران: تا ريخ الوطن العربي القديم، مطبعة جامعة دمشق، ٢٠٠٦م.
١٠. زيتون، عادل: تاريخ العرب والإسلام حتى نهاية العصر الأموي، مطبعة خالد بن الوليد، جامعة دمشق، ١٩٨٢م.
١١. زيود، محمد: تاريخ العرب والإسلام، مطبعة الاتحاد، منشورات جامع دمشق، ١٩٩٥ م.
١٢. شُرّاب، محمد حسن: تاريخ الكتابة وتدوين العلم في العصر الجاهلي والقرن ـــ الهجري الأول، دار الصدّيق، ط١، دمشق ـــ بيروت، ٢٠٠٥م.
١٣ . عاقل، نبيه: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، (د.م)، ١٩٦٩م.
١٣. عبد الكريم، خليل: قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، سينا للنشر، ط ١، القاهرة، ١٩٩٣م.
١٤. العجم، رفيق: موسوعة مصطلحات علم التاريخ العربي والإسلامي، مكتبة لبنان، ط١، بيروت، ٢٠٠٠م.
١٥. عقيل، أديب: القبيلة، الموسوعة العربية، م١٥، مؤسسة الصالحاني للطباعة، ط١، دمشق، ٢٠٠٦م.
١٦.علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين ـــ مكتبة النهضة، ط٣، بيروت ـــ بغداد، ١٩٨٠م.
١٧.عمار، سام: الفراسة، الموسوعة العربية م١٤،مؤسسة الصالحاني للطباعة، ط١، دمشق،٢٠٠٦م.
١٨. فاخوري، محمود: الأدب العربي، الموسوعة العربية م١،مؤسسة الصالحاني للطباعة، ط١، دمشق، ١٩٩٨م.

١٩. فوق العادة، فايز: الفلك عند العرب، الموسوعة العربية م١٤،مؤسسة الصالحاني للطباعة، ط١، دمشق، ٢٠٠٦م.
٢٠. القطب، سمير عبد الرزاق: أنساب العرب، دار البيان، بيروت، (د.ت).
٢١. المنجد في اللغة والأعلام، دارالمشرق، ط٣٦، بيروت، ١٩٩٧م.
٢٢.ـــ النص، إحسان: أيام العرب في الجاهلية، الموسوعة العربية، م٤، مؤسسة الصالحاني للطباعة، ط١، دمشق، ٢٠٠١م.

مع أمنيات التوفيق والنجاح